رسالة

مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي

(٣ من المحرم ١٣٦٧هـ - ١٦نوفمبر ١٩٤٧م)

تقـــديم

نشرت هذه الرسالة في جريدة الإخوان المسلمين اليومية في ٣محـرم ١٣٦٧هـ الموافـق ١٦نوفمبر ١٩٤٧م في سلسلة بعنوان: «ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد»، وجاءت المقـالات بداية من العدد (٤٧٢) بتاريخ ٣محرم ١٣٦٧هـ الموافق ١٦نوفمبر ١٩٤٧م، وحتى العـدد (٥١٢) بتاريخ ١٧صفر ١٣٦٧هـ الموافق ٣١ديسمبر ١٩٤٧م.

كما استكمل نشر الرسالة في مجلة الشهاب التي أصدرها الإمام البنا في غـرة المحـرم ١٣٦٧هـ الموافق ١٤نوفمبر ١٩٤٧م، وقد نشرت من بداية العـدد الثـاني بتـاريخ ١صـفر ١٣٦٧هـ الموافق ١٤ديسمبر ١٩٤٧م حتى العدد الخامس بتاريخ ١جمادى الأولى ١٣٦٧هـ الموافق ١٢مارس ١٩٤٨م.

ولقد أعيد نشرها في كتيب صغير جمع الرسالة كلها تحت عنوان: «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي ونظام الحكم والنظام الاقتصادي» وطبعت في المطبعة العالمية ١٦شارع ضريح سعد.

وقد ضمت تلـك الرسـالة معالجـة لأهـم مشـكلات مصـر السياسـية والاقتصـادية والاجتماعية، وتعتبر من أواخر اجتهادات الإمام الشهيد في هذه الأمور.

* * *

مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد

نظرات ثلاث[١]:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

إلى رئيس الحكومة باعتباره المسئول الأول،

وإلى أعضاء الهيئات النيابية على اختلافها باعتبارهم الممثلين الرسميين للأمة،

وإلى رجال الأزهر جميعًا،

وإلى رؤساء الهيئات الشعبية السياسية والوطنية والاجتماعية باعتبارهم قادة الفكر وموجهي الجماهير،

وإلى كل غيور على مصلحة هذا الوطن محب لخير العالم وسعادة بني الإنسان،

أوجه هذه الكلمات تباعًا على صفحات جريدة الإخوان، أداء للأمانة، وقيامًا بحق الدعوة.

ألا قد بلغت... اللهم فاشهد.

نظرات ثلاث:

فأما النظرة الأولى:

فإلى ما وصلت إليه الحال في وطننا العزيز «وادي النيل» من فساد تغلغل[٢] في كل المرافق وشمل كل مظاهر الحياة:

مطالبنا الوطنية لم نصل فيها إلى شيء.

---

(١) جريدة الإخوان المسلمين اليومية، العدد (٤٧٢)، السنة الثانية، ٣ محرم ١٣٦٧هـ- ١٦ نوفمبر١٩٤٧م، ص(١).

(٢) في الأصل: «وتغلغل».

وروح الشعب المعنوية محطمة أشد تحطيم بسبب هذا الركود، والشقاق والخلاف الذي تملك نفوس القادة والزعماء حاكمين ومعارضين على السواء.

والجهاز الإداري أفسدته المطامع الشخصية، والغايات الحزبية، وسوء التصرفات، وضعف الأخلاق، والمركزية القاتلة، والإجراءات المعقدة، والهرب من تحمل التبعات.

والقانون قد ضعف سلطانه على النفوس والأوضاع لكثرة ما أقحم عليه من تحايل واستثناءات.

والضيق الاقتصادي وشدة الغلاء، وكثرة المتعطلين لقلة الأعمال، وانخفاض مستوى المعيشة إلى حد لا يكاد يتصوره إنسان بين الغالبية العظمى من السكان، مع نضوب معين الرحمة من القلوب، واستيلاء القسوة وروح الجبروت والظلم على النفوس، أخذ يتحول إلى حال من السخط تتمثل في كثرة الإضرابات وتتجلى[1] في كثير من المظاهر والعبارات.

والأخلاق قد انتهى أمرها -أو كاد- وعصف بها الجهل والفقر والحاجة والفاقة، وانتشرت الرذائل ومظاهر الانحلال الخلقي في كل مكان.

والأفكار مبلبلة والنفوس قلقة لا تكاد تستقر في شيء على حال.

وكل هذه المعاني تزداد بمرور الأيام، وتتضاعف ساعة بعد ساعة، وتنذر ببلاء محيط وشر مستطير، إن لم يتداركها العقلاء قبل فوات الأوان.

وأما النظرة الثانية:

فإلى ما وصلت إليه الحال في أوطاننا الغالية العزيزة من بلاد العروبة وأمم الإسلام:

فلسطين: مهددة بهذا الاجتياح الذي انتهت إليه هذه المؤامرة الدولية من الأمريكان والروس والإنجليز على السواء، بفعل الصهيونية العالمية التي سخرت الحكومات والشعوب الغربية بالمال، مع استعدادها السابق لكل تعصب ذميم على العرب والمسلمين أينما كانوا.

---

(١) في الأصل: «ويتجلى».

والباكستان الناشئة: تقاسي الأمرين من هذا العدوان الوثني المسلح، المؤيد بدسائس الاستعمار وأسلحة الاستعمار على اختلاف دوله، حتى روسيا -التي تتظاهر باحترام إرادات[١] الأمم والشعوب- تتآمر هي الأخرى على الدولة الناشئة إن صح ما وافتنا به اليوم البرقيات والأخبار.

واندونيسيا: التي تبلغ سبعين مليونا أكثرهم من المسلمين، تضغط عليها هولندا التي لم تكسر قيد الاحتلال الألماني إلا بيد غيرها من جنود الحلفاء، وتريد أن تحول بين هذا الشعب المسلم الباسل وبين ما هو حق طبيعي له من حرية واستقلال.

وطرابلس الغرب وبرقة: تجهز لها حبائل الاستفتاء ولا يدري عواقب هذه اللعبة السياسية إلا الله. وإن غدًا لناظره قريب[٢].

وشمال إفريقيا بأقسامه[٣]: تونس والجزائر ومراكش، يستغيث ولا مغيث، ويجاهد ما استطاع ليكسر القيود والأغلال التي ضربتها من حوله فرنسا، وحرمته بها حقه في العيش الحر الكريم، وفي الاستقلال التام.

وقل مثل ذلك في كل شعب عربي وإسلامي، فإنك لن تجد واحدا منها قد سلم من مناورات الغصب ودسائس الاستعمار. وهذا في أوضاعه السياسية، وكلها من حيث الأوضاع الاجتماعية ليست أحسن حالا مما تقدم ذكره في وادي النيل. «وكلنا في الهم شرق»[٤].

وأما النظرة الثالثة:

فإلى ما انحدر إليه التفكير بين زعماء العالم وساسة الشعوب، والذين أتاحت لهم

---

(١) في الأصل: «إدارات».

(٢) اقتباس من قول الشاعر الجاهلي قراد بن أجدع من الوافر:

فَإِنْ يَكُ صَدْرُ هَذا اليومِ وَلَّى ... فَإِنَّ غَداً لِنَاظِرِه قَرِيبُ

(٣) في الأصل: «قسامه».

(٤) هذه العبارة لأحمد شوقي، من البيت التالي:

نَصَحتُ وَنَحنُ مُختَلِفونَ دارًا ... وَلَكِن كُلُّنا في الهَمِّ شَرقُ

وهو من بحر الوافر.

المقادير أن يكونوا قادة الدنيا في هذه الأيام بعد الحرب العالمية الثانية.

لقد اختفت المثل العليا تمام الاختفاء، وغابت عن الأنظار والقلوب تلك الأهداف الجميلة التي نادى بها هؤلاء الناس ساعة العسرة، وجندوا باسمها قوى الأمم ضد الظلم والطغيان، فالعدالة الاجتماعية، والحريات الأربع، ومبادئ ميثاق الأمم.. إلخ هذه القائمة الطويلة العريضة من المبادئ السامية والأهداف المغرية أصبحت في خبر كان، ولم تعد لهؤلاء الساسة والزعماء «فلسفة راقية» يقودون بتوجيهها العالم إلا فلسفة المصالح المادية والمطامع الاستعمارية ومناطق النفوذ والاستيلاء على المواد الخام! وكل ذلك على صورة من الجشع والنهم لم تر الدنيا لها مثيلاً[1] ولا بعد الحرب العالمية الأولى. وأصبحت هذه المعاني وحدها هي محور التنافس بين الدول المنتصرة (روسيا من جانب وأمريكا وإنجلترا من جانب آخر) وإن حاولت كل منها أن تستر جشعها ومناورتها بستار من دعوى المبادئ الاجتماعية الصالحة والنظم الإنسانية الفاضلة، باسم الشيوعية أو الديمقراطية، وليس وراء هاتين اللفظتين إلا المطامع الاستعمارية والمصالح المادية في كل مكان.

ونتيجة هذا الانحراف -الذي هو في حقيقة أمره مسخ لإنسانية بني الإنسان- ليست إلا «الحرب الثالثة» المسلحة بالقنابل الذرية، والغازات[2] الخانقة، والأسلحة المهلكة، وما سمعنا -وما لم نسمع عنه بعد- من معدات الهلاك والدمار التي تمثل لنا ما جاءت به الكتب السماوية من وصف القارعة وهول القيامة: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٤-٥].

هذه هي صورة الحال في وطننا الخاص، وفي وطننا العربي والإسلامي، وفي وطننا الإنساني العام، وإذا لم تقم[3] في الدنيا أمة «الدعوة الجديدة» تحمل رسالة الحق والسلام، فعلى الدنيا العفاء[4]، وعلى الإنسانية السلام.

---

(١) في الأصل: «مثلاً».

(٢) في الأصل: «الغارات».

(٣) ساقطة من الأصل.

(٤) العَفاءُ بالفتح والمدّ: الدروسُ، والهلاكُ [الصحاح، مادة (عفو)].

وإن من واجبنا -وفي يدنا شعلة النور وقارورة الدواء- أن نتقدم لنصلح أنفسنا وندعو غيرنا، فإن نجحنا فذاك، وإلا فحسبنا أن نكون قد بلغنا الرسالة وأدينا الأمانة وأردنا الخير للناس، ولا يصح أبدا أن نحتقر أنفسنا، فحسب الذين يحملون الرسالات ويقومون بالدعوات من عوامل النجاح أن يكونوا بها مؤمنين، ولها مخلصين، وفي سبيلها مجاهدين، وأن يكون الزمن ينتظرها والعالم يترقبها... فهل من مجيب؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

ألا قد بلغت اللهم فاشهد.

* * *

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد

أي لون تختار؟[١]

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

تسود مجتمعنا اليوم حيرة، وإذا دامت الحيرة فليس وراءها إلا «الثورة»، والثورة الهوجاء التي لا غاية لها، ولا ضابط ولا نظام ولا حدود، [ولا تعقيب][٢] إلا الهلاك والدمار والخسارة البالغة، وبخاصة في هذا العصر الذي لا يرحم، والذي تتجارى بأهله الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه[٣]، وفي وطن كمصر تتطلع إليه الأنظار وتتقاذفه المطامع في الداخل وفي الخارج.

هذا الكلام متفق عليه بين كل من يعنيهم أمر هذا الوطن، وإنك لتسمعه من الزعماء والمفكرين كما تسمعه من العامة في مجلسهم، والمجتمعين في أنديتهم، وذوي الأعمال في أماكن عملهم، ومن سائق العربة إذا ركبت معه، ومن بائع الخضر إذا تحدثت إليه.. وإذا أنكرنا ذلك أو تغافلنا عن أثره، أو استصغرنا نتائجه، كنا كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمل وتظن[٤] أنها بذلك تخدع الصياد.

وفي مثل هذه الحال لا يجدي في الإنقاذ الترقيع الإداري ولا الروتين الحكومي، ولا تسعف الحائرين الدراسات البطيئة في اللجان المتواكلة، ولا يزداد المتبرمون بمثل هذا العلاج الجزئي المادي إلا تبرمًا وألمًا. ومهما حاولت الحكومة بالإنصاف أو التنسيق أو

---

(١) جريدة الإخوان المسلمين اليومية، العدد (٤٧٣)، السنة الثانية، ٤ محرم ١٣٦٧هـ- ١٧ نوفمبر ١٩٤٧م، ص(١، ٥).

(٢) في الأصل: «لا تعقب».

(٣) أي: يتواقعون في الأهواء الفاسدة، ويتداعون فيها، كما يتجارى داء الكلب في جسم الإنسان الذي أصيب به من جراء عض الكلب المصاب بهذا الداء له، فلا يترك منه عرق ولا مفصل إلا دخله. وهو داء يصيب الكلب فيجعله مسعورًا. [لسان العرب، مادة (جرا)- وعون العون المعبود، (١٠/ ١١٦)]، ويشير الإمام إلى ما أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، عن النبي ﷺ: **«وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ لاَ يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلاَ مَفْصِلٌ إِلاَّ دَخَلَهُ»**.

(٤) في الأصل: «تظن».

الوعود أو الخطب أن تسكت الأفواه الصارخة أو البطون الجائعة أو الأجساد العارية، فلن تستطيع ذلك ولن تصل إليه. والبرهان ماثل والدليل قائم؛ لأن الحيرة والقلق والاضطراب قد مست النفوس والقلوب والأذهان قبل أن تمس المظاهر والأوضاع. وحينئذ لن تقنع هذه النفوس ولن تطمئن إلا إلى «رسالة جديدة» ولون من ألوان الحياة جديد ترى فيه رمزًا لأمانيها، وسبيلاً إلى تحقيق مطالبها. ومتى آمنت النفوس «بالرسالة الجديدة» كفكرة ونظام اطمأنت إليها وسكنت، وحاولت أن تطبقها عمليا على أوضاع الحياة. وكل تاريخ النهضات والإصلاحات الشاملة يعطينا الدليل على صحة هذا الكلام: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ومن هذه الثغرة وتطبيقا لهذا القانون الاجتماعي الذي لا يتخلف، تأمل المبادئ الجديدة والدعوات الجديدة أن تنفذ إلى مصر، وتكافح في سبيل استيلائها على النفوس المصرية والقلوب المصرية أشد الكفاح، وتسلك إلى ذلك كل سبيل مستطاعة وغير مستطاعة. ومن هنا سمعنا كثيرا من هذه الأصوات يتردد في الصحف السيارة وفي المجالس والمنتديات، فالشيوعية جادة في فرض تعاليمها على أبناء هذا المجتمع، والديمقراطية الاستعمارية الهزيلة تحاول من جانبها أن تقاوم هذا التيار، ويتوسطهم قوم معادون للاشتراكية، ويقفون بينهم وبين الإسلام العتيد المستقر في هذه القلوب المؤمنة أربعة عشر قرنًا، المستولي عليها، المؤثر فيها بجماله وجلاله وسموه وروعته، يأبى على الجميع أن ينزل عن مرتبته، أو يتخلى عن هذه القلوب التي[1] آمنت به وجاهدت أكرم الجهاد في سبيل إعلائه وبقائه ورفعته، وردت عنه بهذا الجهاد غارات الصليبيين وهجمات التتار ومكايد الصهيونية: ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ولكن إلى متى هذا الكفاح والتطاحن بين هذه الآراء والأوضاع التي تذرعت بها[2] الألباب والأذهان إلى حدٍّ إن كان اليوم صغيرًا فهو لن يظل كذلك؟!

وإلى متى ينظر أهل الرأي في مصر إلى هذا الصراع في غفلة وبله وانصراف كأن الأمر لا يعنيهم، وكأنه يتناول بلدًا غير بلدهم وأشخاصًا غير أشخاصهم؟! لا مناص لنا من أن نختار.

---

(١) في الأصل: «الذي».

(٢) في الأصل: «فعلا».

وإذا لم نختر اليوم ونحن راضون، فسنرغم غدًا -بل غدًا[1] القريب جدًا- ونحن مرغمون، وإني لأرى الوميض خلل الرماد ويوشك أن يكون له[2] ضرام[3].

لابد من أن نختار لون الحياة الجديدة التي نحياها. لم تعد أوضاع الحياة الاجتماعية بكل نواحيها في مصر صالحة أمام التطور الجديد في الأخلاق والأفكار وحاجات الناس، والعاقل من تدبر الأمر قبل وقوعه وأعد له عدته.

وأمامنا الشيوعية والاشتراكية، وهما معتبرتان[4] في منطق التحالف الدولي اليوم من معاني الديمقراطية، ولا يستطيع الديمقراطيون أن يقدموا غير هذا. وأمامنا كذلك نظام الإسلام وتوجيه الإسلام، وتعاليم الإسلام، وأحكام الإسلام.

ونحن في الحقيقة لسنا مخيرين ولسنا أحرارا في الاختيار، فإننا جميعًا قد آمنا بهذا الإسلام الحنيف دينا ودولة، واعتبرنا مصر دولة إسلامية -بل هي زعيمة دول الإسلام- وقال دستورنا في صراحة في مادته التاسعة والأربعين بعد المائة: «دين الدولة الرسمي الإسلام ولغتها اللغة العربية».

وهذا الشعب -شعب وادي النيل كله في الشمال وفي الجنوب- يدين بهذا الدين الحنيف، والأقلية غير المسلمة من أبناء هذا الوطن تعلم تمام العلم كيف تجد الطمأنينة والأمن والعدالة والمساواة التامة في كل تعاليمه وأحكامه، وهذا الذي يقول كتابه: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

والكلام في هذا المعنى مفروغ منه، وهذا التاريخ الطويل العريض للصلة الطيبة الكريمة بين أبناء هذا الوطن جميعا -مسلمين وغير مسلمين- يكفينا مئونة الإفاضة والإسهاب، وإن من الجميل حقا أن نسجل لهؤلاء المواطنين الكرام أنهم يقدرون هذه المعاني في كل المناسبات، ويعتبرون الإسلام معنى من معاني قوميتهم وإن لم تكن أحكامه

---

(١) في الأصل: «غد».

(٢) في الأصل: «لها».

(٣) من كلام نصر بن سيار، وقد روي البيت بألفاظ مختلفة، منها:

أرى تحت الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون له ضرام

وهو من بحر الوافر.

(٤) في الأصل: «معتبران».

أو تعاليمه من عقيدتهم.

وإذن فلا مناص للحكومة المصرية والهيئات المصرية والأحزاب المصرية من أن تفي بعهدها الشرعي لله ولرسوله يوم نطقت بالشهادتين فالتزمت الإسلام، وبعهدها المدني الوطني لهذا الشعب يوم أصدرت الدستور ونصت فيه على أن الدين الرسمي هو الإسلام، وبغير ذلك تكون قد غدرت بعهدها، وخانت أمانة الله والناس عندها، وعليها أن تصارح الشعب ليحدد موقفه منها وموقفها منه، ولا محل اليوم للمداورة والخداع.

وهذا الوفاء سيحمي هذا الوطن مما يهدده من أخطار اجتماعية داهمة، ويعيد الطمأنينة والسكينة إلى النفوس والقلوب، ولكنه يستلزم حالا تغيير الاتجاهات والأوضاع كلها والمجاهرة بأن وادي النيل هو حامل رسالة الإسلام ومنفذها ومبلغها في غير مواربة ولا وهن، ولا يغني عن العمل الكلام.

فهل تصيخ[١] الآذان المغلقة إلى هذا النذير، فتعود إلى حجر[٢] الإسلام قولاً وعملاً وتطبيقا؟ ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

يا دولة رئيس الحكومة، ويا رجال الأزهر الشريف، ويا رؤساء الهيئات والجماعات والأحزاب، ويا أيها الغُيُر على مصلحة هذا الوطن العزيز، ويا أبناء هذا الوطن جميعًا:

إليكم أوجه النداء، فإلى تعاليم الإسلام: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

ألا قد بلغت اللهم فاشهد.

* * *

(١) أصاخ الرجل يصيخ إصاخة: إذا استمع وأنصت لصوت. [تهذيب اللغة، مادة (صاخ)].
(٢) في الأصل: «جحر».

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد

اعتراضات:[(١)]

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

دعوت قومي إلى أن يختاروا، أو[(٢)] بعبارة أصح وأوضح، إلى أن يبروا بعهدهم مع الله ومع أنفسهم فيقيموا دعائم حياتنا الاجتماعية في كل مظاهرها على قواعد الإسلام الحنيف، وبذلك يسلم مجتمعنا من هذا القلق والاضطراب والبلبلة التي شملت كل شيء، والتي وقفت بنا عن كل تقدم، والتي حالت بيننا وبين أن نتعرف الطريق السوي إلى علاج أية قضية من قضايانا الكثيرة المعلقة في الداخل والخارج، وقلت: إنه لا سبيل للنجاة إلا هذا الاتجاه عقيدة وعملا بكل ما نستطيع من حزم وسرعة.

وقد يقال: كيف ذلك والحياة العصرية في العالم كله لا تقوم على أساس الدين في أية ناحية من نواحيها، وقد اصطلحت أمم العالم، التي بيدها[(٣)] اليوم مقاليد الأمور وتوجيه مقدرات الأمم والشعوب، على فصل الحياة الاجتماعية عن العقائد الدينية، وإقصاء الدين عن كل مرافق الحياة وحصره بين الضمير والمعبد، وهي وحدها نافذة المؤمن التي يتصل منها بالله؟

والذين يقولون هذا القول لم يعرفوا «الإسلام»، ولم يدرسوا تعاليمه وأحكامه، ولم يفقهوه بعد على طبيعته الصحيحة ووضعه السليم.. من أنه دين ومجتمع، ومسجد ودولة، ودنيا وآخرة، وأنه تعرض لشئون الحياة الدنيوية العملية بأكثر مما تعرض به للأعمال التعبدية، وإن كان قد أقام الشطرين معًا على دعامة من سلامة القلب، وحياة الوجدان، ومراقبة الله، وطهر النفس. فالدين على هذا جزء من نظام الإسلام، والإسلام ينظمه كما ينظم الدنيا تمامًا. ونحن كمسلمين مطالبون[(٤)] بأن يقوم ديننا ودنيانا على

(١) جريدة الإخوان المسلمين اليومية، العدد (٤٧٤)، السنة الثانية، ٥ محرم ١٣٦٧هـ- ١٨ نوفمبر١٩٤٧م، ص(١).

(٢) في الأصل: «و».

(٣) في الأصل: «بها».

(٤) في الأصل: «مطالبين».

أساس القواعد الإسلامية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ومن هنا فرق الفقهاء في النظرة التشريعية بين ما هو من قواعد أحكام العبادات والعقائد وما هو من قواعد أحكام المعاملات وشئون الحياة الاجتماعية، فأفسح للنظر والاجتهاد في الثانية ما ليس في الأولى حتى لا يكون على الناس في ذلك حرج ولا مشقة: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وتحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور[١].

وقد يقال: إن هذا جمود ورجوع بالعالم إلى الوراء ألف عام أو تزيد، فكيف يعقل أننا نطبق اليوم نظما جاءت لأمة عاشت قبلنا بأربعة عشر جيلا في أرض غير أرضنا وعلى لون من الحياة غير ألوان حياتنا؟! وأين سنة التطور وقوانين التقدم والارتقاء؟

ونقول لهؤلاء كذلك: إنكم أيضًا لم تفهموا طبيعة الإسلام الحنيف، الذي جاء للناس «فكرة سامية» تحدد الأهداف العليا، وتضع القواعد الأساسية، وتتناول المسائل الكلية، ولا تتورط في الجزئيات، وتدع بعد ذلك للحوادث الاجتماعية والتطورات الحيوية أن تفعل فعلها وتتسع لها جميعا ولا تصطدم بشيء منها.

وإذا كان تاريخ التشريع الإسلامي يحدثنا أن ابن عمر ﷺ كان يفتي في الموسم في القضية من القضايا برأي، ثم تعرض عليه في الموسم التالي من العام القابل فيفتي برأي آخر، فيقال له في ذلك، فيقول: ذاك على ما علمنا وهذا على ما نعلم أو كلام هذا نحوه.

كما يحدثنا أن الشافعي ﷺ وضع بالعراق مذهبه القديم، فلما تمصر وضع مذهبه الجديد نزولاً على حكم البيئة، وتمشيا مع مظاهر الحياة الجديدة، من غير أن يخل ذلك بسلامة التطبيق على مقتضى القواعد الإسلامية الكلية الأولى. وأصبحنا نسمع: «قال الشافعي في القديم». «وقال الشافعي في الجديد»، وترى تغير رأي الرجل الواحد في القضية الواحدة بحسب الزمان تارة -كما فعل ابن عمر- وبحسب المكان تارة أخرى - كما فعل الشافعي- أو بحسبهما معا كما سمعنا أن عمر ﷺ أمر بعدم القطع في السرقة عام المجاعة، وجاءه رجل يشكو سرقة خدمه فأحضرهم فأقروا، وذكروا أن سبب ذلك أنه لا يقوم بكفايتهم من طعام وملبس... إلخ. فتركهم عمر وتوعد الرجل قائلاً: «إذا

(١) من كلام عمر بن العزيز ﷺ. [انظر: الشرح الكبير للشيخ الدردير، (٤/ ١٧٤)].

سرق خدمك مرة ثانية قطعت يدك أنت» واعتبرها شبهة تدرأ الحد، ولاحظ الظروف والملابسات.

فهل يقال بعد هذا: إن في الرجوع إلى النظام الإسلامي رجعية وجمودا! وليست في الدنيا شريعة تقبل التطور، وتساير مقتضيات التقدم، وتتمتع بمعاني المرونة والسلاسة والسعة كشريعة الإسلام الحنيف: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وقد يقال: إن الجهر بالعودة إلى نظام الإسلام مما يخيف الدول الأجنبية والأمم الغربية، فتتألب علينا وتتجمع ضدنا، ولا طاقة لنا بها ولا قدرة لنا عليها! وهذا منتهى الوهن وغاية الفساد في التقدير وقصر النظر. وها نحن أولاء نرى هذه الدول وقد سايرناها في نظمها، وأخذنا بألوان حياتها، واتبعناها في تقاليدها، فهل أغنى ذلك عنا شيئًا؟! وهل دفع عنا من كيدها؟ وهل منعها من أن تحتل أرضنا وتسلب استقلالنا وتستأثر بخيرات بلادنا، ثم تتجمع في كل مؤتمر أو مجتمع دولي ضد حقوقنا وتثير المشكلات والصعاب والعقبات في وجوهنا، ولا تتأثر إلا بشيء واحد هو ظروفها ومصالحها فقط، ولا يعنيها بعد ذلك نصرانية، فقد رأيناها في الحرب الماضية يحطم بعضها بعضا -وكلها مسيحية- وتتملق مع هذا دول الإسلام وأممه وشعوبه، وتتزلف إليها بمعسول القول وحلو الحديث، وهاهم أولاء جميعا يناصرون الصهيونية اليهودية، وهي أبغض ما تكون إليهم لارتباط مصالحهم المادية وأغراضهم الاستعمارية بهذه المناصرة، وقد أصبح هذا المعنى معلومًا في تصرفات كل الساسة الغربيين.

وإذن فلن يجدينا شيئا عندهم أن نتنصل من الإسلام، ولن يزيدهم فينا بغضا أن نعلن التمسك به والاهتداء بهديه، وبخاصة وهم الآن معسكران مختلفان متنافسان على المصالح المادية وحدها.

ولكن خطر التنصل من الإسلام والتنكر له عظيم[1] على كياننا نحن، فما دمنا بعيدين عن تشرب روحه وتحقيق تعاليمه، فسنظل حائرين فتتحطم معنوياتنا، متفرقين فتضعف قوتنا، ولو أخذنا بالحزم وأعلناها صريحة واضحة: أننا معشر أمم الإسلام لا شيوعيون ولا ديمقراطيون ولا شيء من هذا الذي يزعمون، ولكننا بحمد الله مسلمون،

---

(١) في الأصل: «عظم».

لارتسمت أمامنا توا طريق الهداية والنور، ولجمعتنا كلمة الإسلام، ووحدت بيننا وبين إخواننا جميعا في أقطار الأرض. وفي ذلك وحده -ولا شيء غيره- القوة والمنقذ أمام هذا العدوان الغربي الاستعماري الجارف الذي يهددنا في كل مكان.

وخلاصة هذا الكلام في إيجاز: أننا إذا لاحظنا غضب الغربيين ورضاهم في تمسكنا بالإسلام أو بعدنا عنه، فليس لهذا من معنى إلا أننا إن لم نتمسك بالإسلام فلن نكسب رضاهم وسنخسر أنفسنا، في حين أننا إذا تمسكنا به وتجمعنا من حوله واهتدينا بهديه كسبنا أنفسنا ولا شك. وكان هناك احتمال قوي أن نكسبهم أيضًا بتأثير قوة الوحدة. فأي الرأيين أولى بالاتباع يا أولي الألباب؟!

أما اعتراض الأقليات غير المسلمة فقد أشرنا إليه بالأمس[١]، ولا نريد أن نطيل فيه القول اليوم، [فالأمر أوضح][٢] من أن يكون موضع مراء.

إنه ليس أمام الأمم الإسلامية اليوم إلا هذه الفرصة، وإن الدول الغربية تدرك هذا تمامًا، فهي تشغلنا بأنفسنا وتزيدنا حيرة على حيرة. وليس في الوقت متسع للتردد، وإن تبعة من لا يعلم في عنق من يعلم، ولا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم[٣].

فيا رئيس الحكومة، ويا رجال الأزهر، ويا أعضاء الهيئات والجماعات والأحزاب، ويا ذوي الغيرة على هذا الوطن، ويا أبناءه جميعًا،

إليكم أوجه القول: عودوا إلى الإسلام تغنموا وتسلموا: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

ألا قد بلغت، اللهم فاشهد[٤].

---

(١) في النسخ المطبوعة للرسائل: «من قبل».

(٢) في الأصل: «بالأمر واضح».

(٣) من كلام أبي الأسود الدؤلي، وهو من البيت القائل:

لا يَصلُحُ النـاسُ فَـوضى لا سَراةَ لَهُـم ... وَلا سَراةَ إِذا جُهّـالُهُم سـادوا

من بحر البسيط.

(٤) وقد علق الأستاذ الهضيبي على هذه المقالة فرد الأستاذ البنا عليها، وهي كما يلي: «ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، كتب إلينا المستشار الفاضل والقانوني البارع الأستاذ حسن بك الهضيبي الخطاب التالي: حضرة صاحب الفضيلة المرشد العام الأخ الشيخ حسن البنا. السلام عليكم ورحمة الله.

وبعد: فقرأت اليوم مقالكم الثاني «ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد». وقد استوقفني منه عبارة جاءت في مقام الرد على اعتراض افترضتموه ممن يجهل حقيقة الإسلام، وما فيه من مرونة في الأحكام تتسع لما يجد من الأحداث، ومؤدى هذه العبارة أن تاريخ التشريع الإسلامي يحدثنا أن ابن عمر ﷺ كان يفتي في الموسم في القضية من القضايا برأي، ثم تعرض عليه في الموسم التالي من العام القابل فيفتي برأي آخر، فيقال له في ذلك فيقول: ذلك على ما علمنا وهذا على ما نعلم.. إلخ.

كما يحدثنا أن الشافعي ﷺ وضع بالعراق مذهبه القديم، فلما تمصر وضع مذهبه الجديد، نزولاً على حكم البيئة وتمشيا مع مظاهر الحياة الجديدة، من غير أن يخل ذلك بسلامة التطبيق على مقتضى القواعد الإسلامية الكلية... إلخ.

وقد يتوهم متوهم من هذه العبارة أن ابن عمر والشافعي -رضي الله عنهما- أخضعا حكم الدين لأحكام الزمان! ومعاذ الله أن يكون الأمر كذلك، فإن أحداث الزمان يجب أن تخضع لكتاب الله وسنة رسوله، مهما تراءى للناس أن الدنيا لا تحتمل هذا الإخضاع، فالدين هو السنة التي وضعها الله للناس، كما وضع السنن الكونية الأخرى للشمس والقمر والحيوان والنبات وكل ما في السماء وما في الأرض وما عليها. وفي ظني أن ابن عمر لم يغير فتواه نزولاً على حكم الحوادث، بل لأنه ازداد بصرا بحكم الدين في المسألة، لذلك قال: ذاك على ما علمنا وهذا على ما نعلم. كما أني أظن من استقراء سابق لي بسبب تغير رأي الشافعي بين قديمه وحديثه، أنه حين جاء إلى مصر سمع من رواة الحديث بمساجد الفسطاط ما لم يكن قد سمع بالعراق فأقام عليه رأيه الجديد، وكان ﷺ يقول: إذ صح عندي الحديث فهو رأيي.

هذا ولا منازعة في أن على المسلمين أن يجتهدوا في استنباط أحكام لم تكن من قبل، لحوادث لم تكن من قبل، بل لكل مجتهد أن يستنبط ما يهديه الله له من أحكام الدين لجميع الحوادث جديدها وقديمها، وهذه هي المرونة التي جعلها الله من خصائص الدين الإسلامي، ولله الحمد والمنة.

فبودي أيها الأخ الكريم لو أعدت النظر في هذه الجملة بما يزيل الشبهة، أو لعلي مخطئ وأنتم بذلك أعلم مني بلا ريب. ولقد كنت أود أن أفضي إليكم بهذا الحديث في زيادة، لولا أن انحراف صحتي في الأسبوع الماضي لا زال منه بعض الأثر، وأسأل الله تعالى أن يعينكم وأن يهدي أمة محمد إلى العمل بكتاب الله وسنة رسول الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

من المخلص: حسن الهضيبي.

وإنا لنشكر لحضرته هذه الغيرة الجليلة على دين الله والدقة الجميلة في البحث والتمحيص، وجميل جدًّا أن نرى في كبار رجال التقنين المصريين من يحمل مثل هذا القلب المؤمن والذهن الصافي المستنير، مع الدأب على الدرس والإلمام بكل أطراف الموضوع. فجزى الله الأستاذ حسن بك الهضيبي عن الدين والحق والعدالة خير الجزاء، وأكثر فينا من أمثاله، وما ذكره في خطابه حق لاشك فيه، والذي أردته بكلمتي هو الإشارة إلى أن من مرونة التشريع الإسلامي أن العرف والاجتهاد قاعدتان من قواعده فيما لا نص فيه، أما حين يكون النص فلا اجتهاد معه طبعا». [جريدة الإخوان المسلمين اليومية، العدد (٤٨٨)، السنة الثانية، ٢١محرم ١٣٦٧هـ- ٤ديسمبر ١٩٤٧م، ص(٣)].

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد

قضيتنا الوطنية وكيف تحل في ضوء توجيه الإسلام[١]

حقوقنا الوطنية معروفة، أعلنتها الأمة بكل وضوح وجلاء على لسان أحزابها وهيئاتها وجماعاتها وأفرادها في كل المناسبات، وهي: تحقيق وحدة وادي النيل جنوبه وشماله، وجلاء القوات الأجنبية عنه جميعًا، لتتم بذلك حقيقة حريته واستقلاله.

والإسلام الحنيف يعلن الحرية ويزكيها، ويقررها للأفراد والأمم والجماعات بأفضل معانيها، ويدعوهم إلى الاعتزاز بها والمحافظة عليها، ويقول نبيه ﷺ: «من أعطى الذلة من نفسه طائعًا غير مكره فليس مني»[٢]، وهو يحارب هذه اللصوصية الدولية التي يسمونها بالاستعمار بكل ما فيه من قوة، ولا ترضى تعاليمه أبدًا بأن تسود أمة أمة أو يرهق شعب شعبًا آخر، ولا تزال كلمة عمر الفاروق رضي الله عنه ترن في الآذان حين قال لعامله عمرو بن العاص: «متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا».

---

(١) مجلة الإخوان المسلمين اليومية، العدد (٤٧٥)، السنة الثانية، ٦ محرم ١٣٦٧هـ- ١٩ نوفمبر١٩٤٧م، ص(١، ٥)، والعنوان في النسخ المطبوعة للرسائل: «قضيتنا الوطنية وكيف تحل في ضوء التوجيه الإسلامي؟».

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط»، ح(٤٧٨)، وقال الهيثمي في «المجمع»، (١٠/ ٢٤٨): «رواه الطبراني، وفيه يزيد بن ربيعة الرحبي وهو متروك»، وقال الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة»، (١/ ٤٨٠): «ضعيف جدًّا»، والإسلام يطلب من أفراده أن يكونوا أعزاء، وأن الموت خير من العيش في ذلة ومهانة، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

ومن الأحاديث الصحيحة في هذا المعنى ما أخرجه البخاري في «الشُّرُوطِ»، باب: «الشُّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمُصَالَحَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ وَكِتَابَةِ الشُّرُوطِ»، ح(٢٥٢٩)، من حديث المسور بن مخرمة ومروان أن عمر بن الخطاب قال للنبي في صلح الحديبية عندما شعر أن هناك إجحافًا بالمؤمنين: «لِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا»؟! وكذلك ما أخرجه مسلم في «الإيمان»، باب: «الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ قَصَدَ أَخْذَ مَالِ غَيْرِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ كَانَ الْقَاصِدُ مُهْدَرَ الدَّمِ فِي حَقِّهِ وَإِنْ قُتِلَ كَانَ فِي النَّارِ وَأَنَّ مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»، ح(٢٠١) من طريق أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ: «فَلا تُعْطِهِ مَالَكَ». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «قَاتِلْهُ». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: «فَأَنْتَ شَهِيدٌ». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «هُوَ فِي النَّارِ».

ويوم حمل الفاتح العربي المسلم سيفه على عاتقه، وانطلق غازيًا في أرض الله لم يكن يرجو من وراء ذلك مغانم دنيوية، ولم يكن يتطلع إلى خيرات الأمم والشعوب ليستأثر بها دونها، وإن امتلأت يداه منها بغير قصد منه، ولكن كان يؤمن بدعوة ويحمل رسالة، ويحمي في العالم مبادئ الحق والعدل والسلام. وتاريخ الصدر الأول من أئمة المسلمين الراشدين المهديين -وهم الحجة للإسلام- يعطيك هذه الصورة بينة المعالم، واضحة الحدود.

والإسلام مع هذا يعتبر الأمة الإسلامية أمينة على رسالة الله في أرضه، ولها في العالم مرتبة الأستاذية -ولا نقول السيادة[١]- بحكم هذه الأمانة، فلا يسمح لها أن تذل لأحد، أو تستعبد لأحد، أو تلين قناتها لغامز، أو تخضع لغاصب معتد أثيم: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

ويوم قرر الإسلام هذا، قرر الطريق العملي إلى حماية هذه الحرية، فافترض الجهاد بالنفس والمال، وجعله فرض كفاية لتأمين الدعوة، وفرض عين على كل أبناء الأمة لرد العدوان على الوطن، إذا واجهته قوات الغزاة من غير المسلمين، وجعل الشهادة أعلى مراتب الإيمان، ووعد المجاهدين النصر والتأييد في الدنيا، والخلود والبقاء والنعيم المقيم في الآخرة، وأعلن أن الجهاد أفضل الأعمال بعد الإيمان: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۞ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ۞ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢].

ومع هذا فقد رحب الإسلام بالوسائل السلمية لحسم الخلاف وإنهاء الخصومة متى أدت هذه الوسائل إلى الاعتراف بالحق الكامل لأصحابه: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ [الأنفال: ٦١]. وما خير ﷺ[٢] بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن محرمًا[٣]. ومن السلم المفاوضة إذا أوصلت إلى الحق الكامل، وقد فاوض رسول الله ﷺ

---

(١) في النسخ المطبوعة للرسائل: «مرتبة السيادة».

(٢) في النسخ المطبوعة للرسائل: «النَّبي ﷺ».

(٣) أخرج البخاري في «الْمَنَاقِبِ»، باب: «صِفَةِ النَّبِي ﷺ»، ح(٣٢٩٦)، ومواضع أخر، ومسلم في «الْفَضَائِلِ»، باب: «مُبَاعَدَتِهِ ﷺ لِلآثَامِ وَاخْتِيَارِهِ مِنَ الْمُبَاحِ أَسْهَلَهُ وَانْتِقَامِهِ لِلَّهِ عِنْدَ انْتِهَاكِ

في الحديبية، ومن السلم التحاكم إذا أدى إلى هذا الحق أيضًا، وإن كنا لا نعلم أن رسول الله ﷺ أو أحدًا من الخلفاء الراشدين المهديين رضي بتحكيم كافر، ولكنه مقتضى عموم الآية، ولازم الاتفاق على الخير، الذي لا[1] يمنعه الإسلام بين المسلمين وغيرهم متى كان فيه مصلحة لهم وليس فيه ضرر عليهم.

فإذا فشلت هذه الجهود السلمية فإن رأي الإسلام صريح في «النبذ»[2] الذي يتضمن إعلان الخصومة، ثم بالأخذ توًا بكل وسيلة من وسائل «الجهاد»: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ۞ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ ۞ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٥٨-٦٠].

وقد وعد الله المجاهدين للحق أن يدافع عنهم وينصرهم لا[3] محالة على أعدائهم، مهما يكن[4] عدوهم كامل الأهبة، عظيم العدد، موفور العدة، قوي الوسائل، وعليهم ألا يعبئوا بذلك، وأن يعتمدوا على الله وحده، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

هذه الأحكام جميعًا مقررة في الإسلام، يعرفها بتفصيل أوسع، واستدلال أقوى وأدق وأحكم كل من نهل من معينه، وأخذ بحظ من الفقه فيه، وعلى ضوئها نستطيع أن نحل قضيتنا الوطنية التي وصلت إلى حد من الارتباك تبلبلت معه الخواطر واضطربت الأذهان، وإليك بيان ذلك:

لقد فاوضنا فلم نصل إلى شيء لتعنت الإنجليز وتصلبهم ومناورتهم، واحتكمنا فلم نصل إلى شيء كذلك أمام تغلب المصالح الدولية والمطامع الاستعمارية. ولقد قال كاتب

حُرُمَاتِهِ»، ح(٤٢٩٤)، وموضع آخر، من طريق عائشة -رضي الله عنها- قالت: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا». واللفظ للبخاري.

(١) ساقطة من الأصل.

(٢) في الأصل: «البند».

(٣) في الأصل: «ولا».

(٤) في الأصل: «كان».

فاضل: إننا وصلنا إلى كسب أدبي عظيم بالدعاية الواسعة لقضيتنا بطرحها أمام أنظار العالم كله، وإخراجها من حيز التفاهم الثنائي الضيق إلى حيز التحاكم الدولي الواسع، وذلك صحيح، ولكن هذا الكسب الأدبي لن يغني عن الحقيقة الواقعة شيئًا، وهي أننا لازلنا مع الإنجليز؛ حيث كنا لم نتقدم خطوة، بل إن هذا الركود كان مدعاة إلى التساؤل والبلبلة.

لم يبق -إذًا- إلا «النبذ على سواء» بأن نعلنهم بالخصومة الصريحة السافرة، ونقرر في صراحة إلغاء ما بيننا وبينهم من معاهدات واتفاقات، ونعلن اعتبار أمة الوادي معهم في حالة حرب -ولو سلبية- وننظم حياتنا على هذا الاعتبار.

اقتصاديًّا: بالاكتفاء والاقتصار على ما عندنا وعند إخواننا من العرب والمسلمين والدول الصديقة إن كانت.

واجتماعيًّا: بتشجيع روح العزة والكرامة وحب الحرية.

وعمليًّا: بتدريب الشعب كله تدريبًا عسكريًّا حتى يأتي أمر الله.

وتهيأ نفوس الشعب لذلك بدعاية واسعة تامة كاملة، كما تفعل الأمم إذا واجهت حالة الحرب الحقيقية، وتتغير كل الأوضاع الاجتماعية على هذا الأساس.

وهذا العمل لا يتسنى للأفراد ولا للهيئات ابتداء، ولكن الحكومة هي المسئولة عنه أولاً وآخرًا.

والعجيب أن رئيس الحكومة المصرية أعلن هذا صراحة في مجلس الأمن ثم عاد فلم يعمل شيئًا ولم يتقدم في هذه السبيل خطوة. هذا واجب الحكومة قطعًا.

وأما الشعب فنحن نقولها له في صراحة ووضوح وثقة: إنه على أتم استعداد ليبذل[1] كل شيء لو سلكت الحكومة هذه السبيل، إنه مستعد ليجوع وليعرى لو سلكت الحكومة به هذه السبل وليموت ويناضل، ويكافح بأشد أنواع النضال والكفاح، ولكن على شريطة أن يكون ذلك في سبيل حريته واستقلاله لا في سبيل ارتباك اللجان الحكومية، وضعف الوسائل الإدارية، والتخبط في السياسة الاقتصادية، والوقوف أمام مكايد الإنجليز وضغطهم موقف المستسلمين العاجزين.

(١) في النسخ المطبوعة: «لبذل».

لقد سمعت عاملاً فقيرًا يقول حين صدرت الأوامر بخلط الخبز، وهو فرق ليس من السهل على متمدن أن يصيبه قبل عام: إنني مستعد لأن آكل أنا وأولادي كل يوم مرة واحدة، إذا وثقنا من أن هذا في سبيل الحرية والتخلص من الإنجليز، ولكني ساخط كل السخط لأني لا أفهم لماذا نلجأ إلى هذا الخلط ونحن بلد زراعي أعظم محصوله المواد الغذائية؟!

فالشعب على أتم استعداد للبذل، ولكن في طريق واضحة مرسومة تؤديه إلى الحرية أو الشهادة، بقيادة حكومة حازمة ترسم له -في قوة وإخلاص- مراحل هذا الطريق، أما إذا استمرت الحكومة في ترددها وتراخيها واضطرابها، فلن يؤدي ذلك بالشعب إلا إلى أحد أمرين: إما أن «يثور»، وإما أن «يموت»، وكلاهما جريمة وطنية لا يغتفرها أبدًا التاريخ.

فيا دولة رئيس الحكومة، ويا رجال الأزهر الشريف، ويا زعماء الهيئات والأحزاب، ويا ذوي الغيرة على هذا الوطن، ويا أبناء الأمة جميعًا:

هذه هي الطريق فاسلكوها في ضوء الإسلام والله معكم.

ألا قد بلغت.. اللهم فاشهد.

* * *

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد

وحدتنا في ضوء التوجيه الإسلامي؟[1]

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

بالأمس وضعت بين يدي قومي -في قضيتنا الوطنية الخاصة- توجيه الإسلام الذي هو أخصر الطرق كلها حلاً حاسمًا كريمًا، والذي لا يعدو النبذ بالخصومة، وإعداد وسائل الجهاد، ومتى فعلنا ذلك، فقد خرجنا ولاشك من هذه الحيرة، ووجدنا الجواب الصحيح لهذا السؤال الذي يتحرك به كل لسان، ويتردد في خاطر كل مواطن: ماذا نعمل الآن؟

والحق أننا نحار لأننا لا نريد أن نفعل شيئًا، ونهرب من تبعات العمل، ونفر من ثقل التضحيات وتكاليف الكفاح، ونتلمس اللين والسهولة دائمًا، ولا نفكر في سواهما، ونتصور أن الحرية والاستقلال يهبطان على الناس من السماء بغير عمل. والسماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، ولا تفيض بحرية أو استقلال، ولو كنا جادين حقيقة في الطلب، لسرنا في الطريق بعد أن عرفناه في كلمتين اثنين: «ننبذ»، و«نجاهد»، والنصر بعد ذلك من عند الله.

واليوم أعرض لموضوع آخر يتصل بقضيتنا الوطنية العامة التي تنظم قضايا الأمة العربية بمختلف أممها والعالم الإسلامي كله، لنرى كيف يمكن أن تحل هي الأخرى في ضوء توجيه الإسلام الحنيف.

معلوم أن الإسلام رسالة عالمية جاءت لخير الأمم والشعوب جميعًا، لا فرق بين عربي وعجمي أو شرقي وغربي: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. ولهذا دعا إلى القضاء على الفوارق الجنسية والعنصرية، وأعلن الأخوة الإنسانية، ورفع لواء العالمية بين الناس لأول مرة في تاريخ البشر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

---

(١) مجلة الإخوان المسلمين اليومية، العدد (٤٧٦)، السنة الثانية، ٧ محرم ١٣٦٧هـ- ٢٠ نوفمبر١٩٤٧م، ص(١).

اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

ومعلوم أن الإسلام كذلك قد قرر من باب الأولى أقوى معاني الأخوة بين المؤمنين به والمتسبين إليه والمعتقدين لرسالته، حتى جعل الأخوة معنى من معاني الإيمان، بل هي أكمل معانيه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، و«المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه»[١]، والمؤمنون «في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٢]، و«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[٣].

ويوم واجه المسلمون العالم كله صفًا واحدًا وقلبًا واحدًا في ظل هذه الأخوة الصادقة الحقة، لم تثبت أمامهم ممالك الروابط الإدارية أو السياسية المجردة ساعة من نهار، وانهزم أمامهم -بغير نظام- الروم والفرس على السواء. وكونوا إمبراطورية ضخمة تمتد من المحيط إلى المحيط ذات علم وحضارة وقوة وإشراق.

ويوم غفلوا عن سر قوتهم، ولم يأخذوا بهدى كتابهم: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ودب إليهم داء الأمم من قبلهم من تغليب المصالح المادية الزائلة على الأخوة الإيمانية الباقية تمزقت هذه الإمبراطورية أيدي سبأ[٤]، ولعبت بها المطامع الداخلية والخارجية، وانتهى أمرها أخيرًا جدًّا بعد الحرب العالمية الأولى إلى الانهيار والوقوع في أسر خصومها من غير المسلمين، الذين احتلوا أرضها، وملكوا أمرها، وتقاسموها فيما بينهم، وظنوا أنه قد انتهى أمر الإسلام وختمت الحرب الصليبية أفضل ختام.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) قولهم: ذهب القوم أيدي سبأ، وأيادي سبا: أي متفرِّقين، شُبهوا بأهل سبأ لما مزقهم الله في الأرض كلَّ ممزق، فأخذ كل طائفة منهم طريقًا على حدة. واليدُ: الطَّريق. والعرب لا تهمز سبأ في هذا الموضع؛ لأنه كثُر في كلامهم فاستثقلوا ضغطة الهمز وإن كانت سبأ في الأصل مهموزة [تهذيب اللغة، مادة (سبأ)].

وكانت الدسيسة الكبرى التي اقتحمت على المسلمين عقولهم وقلوبهم أولاً، ثم أرضهم وبلادهم ثانيًا، هي تأثرهم بالعنصرية والشعوبية، واعتداد كل أمة منهم بجنسها، وتناسي ما جاء به الإسلام من القضاء على عبية[1] الجاهلية والتفاخر بالأجناس والألوان والأنساب.

وقد انتهت الحرب العالمية الثانية التي قضت على العنصريات الحديثة في أوروبا، عنصرية النازية والفاشية[2]، فرأينا بعدها الدول الأوروبية الكبرى تسعى سعيًا حثيثًا إلى[3] التجمع والتكتل، باسم العنصريات تارة، والمصالح تارة أخرى.. فروسيا تحاول أن تجمع العنصر الصقلبي[4] بكل شعوبه تحت لواء الاتحاد السوفيتي، وإنجلترا وأمريكا تتجمعان باسم الجنس واللغة، ثم تتقاسمان بعد ذلك أمم العالم ومناطق النفوذ في الأرض باسم المصالح والضرورات الحيوية، وتستر هذا التنافس بينها بتكوين هيئة الأمم المتحدة لتوهم الناس أنها تزكي العالمية وتعمل لخير بني الإنسان، كما رأينا هذه الدول نفسها تتجمع ضد حقوقنا الوطنية، وتخذلنا في كل قضية من قضايانا الجوهرية، سواء أعرضت في مجلس الأمن أم في هيئة الأمم المتحدة، كما حدث في قضية مصر وفي قضية فلسطين وفي قضية إندونوسيا.

ونحن أمام كل هذه الأوضاع العالمية الجديدة، وأمام تشابه قضايانا وتشابكها فهي كلها قضية واحدة معناها استكمال الحرية والاستقلال وتكسير قيود الاستغلال والاستعمار، لابد أن نلجأ من جديد إلى ما فرضه الإسلام على أبنائه منذ أول يوم حين جعل الوحدة معنى من معاني الإيمان. يجب أن نتكتل ونتوحد. وقد بدأنا بالجامعة العربية، وهي وإن كانت لم تستقر بعد الاستقرار الكامل، إلا أنها نواة طيبة مباركة على كل حال، فعلينا أن ندعمها ونقويها ونخلصها من كل ما يحيط بها من عوامل الضعف والتخلخل. وعلينا بعد ذلك أن نوسع الدائرة حتى تتحقق رابطة أمم الإسلام (عربية وغير عربية) فتكون نواة «لهيئة الأمم الإسلامية» بإذن الله. وبهذه الطريقة التي ستضيف

---

(١) في الأصل: «عيبة»، والعبية: الكبر والنخوة. [لسان العرب، مادة (عبب)].

(٢) في الأصل: «أو الفاشية».

(٣) في الأصل: «على».

(٤) أي: دول شرق أوروبا.

إلى وسائلنا الخاصة لكل أمة من النبذ والجهاد معنى آخر من معاني القوة هو الوحدة والتجمع، نستطيع أن نتخلص، وأن نحفظ التوازن العالمي بين الأمم الطامعة والدول المتنافسة على المغانم والحطام.

والمسئول عن تحقيق هذه الخطوات الحكومات العربية والإسلامية جميعًا، وكل دعاة الإصلاح في هذه الشعوب من رسميين وأهليين. واليوم أوجه النداء: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ألا قد بلغت اللهم فاشهد.

* * *

رسالة: نظام الحكم

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد

مشاكلنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي

١ -نظام الحكم[١]

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

[الحكومة في الإسلام:][٢]

يفترض الإسلام الحنيف «الحكومة» قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي الذي جاء به للناس، فهو لا يقر الفوضى، ولا يدع الجماعة المسلمة بغير إمام، ولقد قال رسول الله ﷺ لبعض أصحابه: «إذا نزلت ببلد وليس فيه سلطان فارحل عنه»[٣]، كما قال في حديث آخر لبعض أصحابه كذلك: «إذا[٤] كنتم ثلاثة فأمروا عليكم رجلاً»[٥].

فمن ظن أن الدين -أو بعبارة أدق: الإسلام- لا يعرض للسياسة، وأن[٦] السياسة ليست من مباحثه، فقد ظلم نفسه، وظلم علمه بهذا الإسلام، ولا أقول: ظلم الإسلام؛ فإن الإسلام شريعة الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وجميل قول الإمام الغزالي رضي الله عنه: «اعلم أن الشريعة أصل، والملك حارس، وما لا أصل له فمهدوم وما لا

---

(١) مجلة الإخوان المسلمين اليومية، العدد (٤٧٩)، السنة الثانية، ١١ محرم ١٣٦٧هـ- ٢٤ نوفمبر١٩٤٧م، ص(١).

(٢) هذه العناوين الجانبية ليست في الأصل.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في الأصل: «وإذا».

(٥) أخرج الطبراني في «الكبير»، ح(٨٨٢٣)، منْ طريق عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قال ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلاثَةً فِي سَفَرٍ فَأَمِّرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدَكُمْ، وَلا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»، (٥/ ٢٤٩): «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح».

(٦) في النسخة المطبوعة من الرسائل: «أو أن».

حارس له فضائع»[١] فلا تقوم الدولة في الإسلام إلا على أساس الدعوة، حتى تكون دولة رسالة لا تشكيل إدارة، ولا حكومة مادة جامدة صماء لا روح فيها، كما لا تقوم الدعوة إلا في حماية دولة تحفظها وتنشرها وتبلغها وتقويها.

وأول خطئنا أننا نسينا هذا الأصل ففصلنا الدين عن السياسة عمليًا، وإن كنا لم نستطع أن نتنكر له نظريًا، فنصصنا في دستورنا على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام، ولكن هذا النص لم يمنع رجال السياسة وزعماء الهيئات السياسية من أن يفسدوا الذوق الإسلامي في الرءوس، والفطرة الإسلامية في النفوس، والجمال الإسلامي في الأوضاع، باعتقادهم وإعلانهم وعملهم على أن يباعدوا دائمًا بين توجيه الدين ومقتضيات السياسة، وهذا أول الوهن وأصل الفساد وبلاء التقليد الأعمى الذي لا خير فيه.

[دعائم الحكم الإسلامي:]

والحكومة في الإسلام تقوم على قواعد معروفة مقررة، هي الهيكل الأساسي لنظام الحكم الإسلامي، فهي تقوم على مسئولية الحاكم ووحدة الأمة واحترام إرادتها ولا عبرة بعد ذلك بالأسماء والأشكال.

[مسئولية الحاكم:]

فالحاكم مسئول بين يدي الله وبين يدي الناس، وهو أجير لهم وعامل لديهم، ورسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته»[٢]، وأبو بكر ﷺ يقول حين ولي الأمر وصعد المنبر: «أيها الناس، كنت أحترف لعيالي فأكتسب قوتهم، فأنا الآن أحترف لكم، فافرضوا لي من بيت مالكم»[٣]. وهو بهذا قد فسر نظرية العقد الاجتماعي أفضل وأعدل تفسير، بل هو قد وضع أساسه، فما هو إلا تعاقد بين الأمة والحاكم على رعاية المصالح العامة، فإن أحسن فله أجره، وإن أساء فعليه عقابه.

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، (١/ ١٧)، ولأهمية النص نذكر طرفًا منه: «الدنيا مزرعة الآخرة، ولا يتم الدين إلا بالدنيا. والملك والدين توأمان؛ فالدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان، وطريق الضبط في فصل الحكومات بالفقه».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى، (٣/ ١٨٤-١٨٥).

[وحدة الأمة:]

والأمة الإسلامية أمة واحدة؛ لأن الأخوة التي جمع الإسلام عليها القلوب أصل من أصول الإيمان لا يتم إلا بها ولا يتحقق إلا بوجودها، ولا يمنع ذلك حرية الرأي وبذل النصح من الصغير والكبير للصغير والكبير كذلك، وهو المعبر عنه في عرف الإسلام ببذل النصيحة وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١]، وقال: «إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تودع منهم»[٢]، وفي رواية: «وبطن الأرض خير لهم من ظهرها»، وقال: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»[٣].

ولا تتصور الفرقة في الشئون الجوهرية في الأمة الإسلامية؛ لأن نظام الحياة الاجتماعية [الذي يضمه][٤] نظام واحد هو «الإسلام»، معترف به من أبنائها جميعًا، والخلاف في الفروع لا يضر، ولا يوجب بغضًا ولا خصومة ولا حزبية خاصة يدور معها الحكم كما تدور.. ولكنه يستلزم البحث والتمحيص والتشاور وبذل النصيحة، فما كان من المنصوص عليه فلا اجتهاد فيه، وما لا نص فيه فقرار ولي الأمر يجمع الأمة عليه ولا شيء بعد هذا.

[احترام إرادة الأمة:]

ومن حق الأمة الإسلامية أن تراقب الحاكم أدق المراقبة، وأن تشير عليه بما ترى فيه الخير، وعليه أن يشاورها وأن يحترم إرادتها، وأن يأخذ بالصالح من آرائها، وقد أمر الله الحاكمين بذلك فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وأثنى به على المؤمنين خيرًا فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في «مُسْنَد عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا»، ح(٦٢٣٤)، والحاكم في «المستدرك»، ح(٧١٣٦). وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقد ضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة والموضوعة»، (٢/ ٤٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في الأصل: «التي يضمها».

ومضت على ذلك سنة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين المهديين من بعده، إذا جاءهم أمر جمعوا أهل الرأي من المسلمين فاستشاروهم ونزلوا عند الصواب من آرائهم، بل إنهم ليندبونهم إلى ذلك ويحثونهم عليه، فيقول أبو بكر ﷺ: «فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني أو قوموني»، ويقول عمر بن الخطاب: «من رأى في اعوجاجًا فليقومه».

والنظام الإسلامي بعد هذا لا يعنيه الأشكال ولا الأسماء متى تحققت هذه القواعد الأساسية التي لا يكون الحكم صالحًا بدونها، ومتى طبقت تطبيقًا يحفظ التوازن بينها ولا يجعل بعضها يطغى على بعض. ولا يمكن أن يحفظ هذا التوازن بغير الوجدان الحي والشعور الحقيقي بقدسية هذه التعاليم، وإن في المحافظة عليها وصيانتها الفوز في الدنيا والنجاة في الآخرة، وهو ما يعبرون عنه في الاصطلاح الحديث «بالوعي القومي» أو «النضج السياسي» أو «التربية الوطنية» أو نحو هذه الألفاظ. ومردها جميعًا إلى حقيقة واحدة هي اعتقاد صلاحية النظام، والشعور بفائدة المحافظة عليه؛ إذ إن النصوص وحدها لا تنهض بأمة كما لا ينفع القانون إذا لم يطبقه قاضٍ عادل نزيه.

ونحن في حياتنا العصرية قد نقلنا عن أوروبا هذا النظام النيابي الذي تعيش في ظله حكوماتنا الآن، ووضعنا دستورنا على أساسه، وتغير هذا الدستور مرة باسمه كذلك، وجربنا الكثير من آثاره. فإلى أي مدى ينطبق هذا النظام على الإسلام؟ وإلى أي مدى كانت فائدتنا منه طوال هذه المدة؟

ذلك ما سنعرض له في الكلمة التالية إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد

مشاكلنا الداخلية في ضوء نظام الإسلام

٢ - نظام الحكم[١]

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قدمت في الكلمة السابقة أن الدعائم التي يقوم عليها نظام الحكم الإسلامي ثلاث:

(أ) مسئولية الحاكم.

(ب) ووحدة الأمة.

(ج) واحترام إرادتها.

ولقد تحقق هذا النظام بأكمل صورة في عهد الخلفاء بعد رسول الله ﷺ، فكانوا يشعرون أتم الشعور بالتبعات الملقاة على كواهلهم كحكام مسئولين عن رعاياهم، ويظهر ذلك في كل أقوالهم وتصرفاتهم الكثيرة، وحسبك أن تقرأ ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين ولي الخلافة، وعمر بن عبد العزيز حين وليها كذلك، وجاءت سيرتها مطابقة لقولها لتعلم صدق ما نقول.

قال عمر بن الخطاب: «أيها الناس قد وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم[٢] عليكم، وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم، ما توليت ذلك منكم، ولكفى عمر مُهِمًّا[٣] محزنًا انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم، كيف آخذها؟ ووضعها أين أضعها؟ وبالسير فيكم كيف أسير؟ فربي المستعان». فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده[٤]، وكان يقول: «لو أن جملاً

---

(١) مجلة الإخوان المسلمين اليومية، العدد (٤٨٠)، السنة الثانية، ١٢ محرم ١٣٦٧هـ - ٢٥ نوفمبر ١٩٤٧م، ص(١، ٥).

(٢) في الأصل: «وأموالكم».

(٣) أهمني الشيء يهمني: إذا أحزنني فأنا مُهَمّ. [جمهرة اللغة، مادة (همم)].

(٤) انظر: تاريخ الطبري، (٣/ ٢٨٢).

هلك ضياعًا بشط[١] الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب»[٢].

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته: «أما بعد؛ فإنه ليس بعد نبيكم ﷺ نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب. ألا ما أحل الله ﷻ حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله حرام إلى يوم القيامة ألا لست بقاض ولكني منفذ. ألا وإني لست بمبتدع ولكني متبع. ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله ﷻ. ألا إني لست بخيركم ولكني رجل منكم غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً»[٣]. وقدمت إليه مراكب الخلافة بعد دفن سليمان بن عبد الملك فأمر بتأخيرها، وركب بغلته وعاد إلى منزله، فدخل عليه مولاه مزاحم فقال: يا أمير المؤمنين لعلك مهتم؟ فقال: «بمثل هذا الأمر الذي نزل بي اهتممت. إنه ليس من أمة محمد في مشرق ولا مغرب أحد إلا له قبلي حق يحق علي أداؤه إليه، غير كاتب إلي فيه ولا طالبه مني».

وكانت الأمة مجتمعة الكلمة باستمساكها بأهداب الدين واعتقادها فضل ما جاء به من أحكام، ورعايتها لأمر رسول الله ﷺ وتشديده في الوحدة، حتى أمر بقتل من فارق الجماعة أو خرج على الطاعة فقال: «من أتاكم وأمركم جميع يريد أن يشق عصاكم فاضربوه بالسيف كائنًا من كان»[٤]. كما قال -فيما رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عميّة، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة فقتل، فقتلة جاهلية. ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي[٥] عهد عهده، فليس مني

---

(١) في الأصل: «بشطر».

(٢) انظر: السابق، (٣/ ٢٧٢).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، (٥/ ٣٤٠).

(٤) أخرج مسلم في «الإِمَارَةِ»، باب: «حُكْمِ مَنْ فَرَّقَ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ مُجْتَمِعٌ»، ح(٣٤٤٣)، من طريق عَرْفَجَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ». وأخرج مسلم أيضًا في «الإِمَارَةِ»، باب: «حُكْمِ مَنْ فَرَّقَ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ مُجْتَمِعٌ»، ح(٣٤٤٢)، عن عَرْفَجَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ».

(٥) في الأصل: «ذي».

ولست منه»[١].

كما كانت إرادتها محترمة مقدورة، فما كان أبو بكر يمضي في الناس أمرًا إلا بعد أن يستشيرهم وخصوصًا فيما[٢] لا نص فيه، وكذلك كان عمر ﷺ، فقد جعل الخلافة من بعده شورى في الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض.

وقلت في الكلمة السابقة أيضًا: إننا نقلنا هذا النظام النيابي، الذي تعيش حكوماتنا في ظله عن أوروبا، فإلى أي مدى ينطبق على الإسلام؟ وما الذي أفدناه منه منذ طبق في عهده الأخير في بلادنا إلى الآن، وهي مدة تبلغ ربع قرن من الزمان تقريبا؟

[موقف الإسلام من النظام النيابي والدستور المصري:]

يقول علماء الفقه الدستوري: إن النظام النيابي يقوم على مسئولية الحاكم وسلطة الأمة واحترام إرادتها، وإنه لا مانع فيه يمنع من وحدة الأمة واجتماع كلمتها، وليست التفرقة والخلاف شرطًا فيه، وإن كان بعضهم يقول: إن من دعائم النظام النيابي البرلماني «الحزبية». ولكن هذا إذا كان عرفا فليس أصلا في قيام هذا النظام لأنه[٣] يمكن تطبيقه بدون هذه الحزبية وبدون إخلال بقواعده[٤] الأصلية.

وعلى هذا فليس في قواعد هذا النظام النيابي الأساسية ما يتنافى مع القواعد التي وضعها الإسلام لنظام الحكم، وهو بهذا الاعتبار ليس بعيدًا عن النظام الإسلامي ولا غريبا عنه، وبهذا الاعتبار أيضًا يمكن أن نقول في اطمئنان: إن القواعد الأساسية التي قام عليها الدستور المصري لا تتنافى مع قواعد الإسلام، وليست بعيدة عن النظام الإسلامي ولا غريبة عنه، بل إن واضعي الدستور المصري -رغم أنهم وضعوه على أحدث المبادئ والآراء الدستورية وأرقاها- فقد توخوا فيه ألا يصطدم أي نص من نصوصه بالقواعد الإسلامية، فهي إما متمشية معها صراحة كالنص الذي يقول: «دين الدولة الرسمي الإسلام» أو قابلة للتفسير الذي يجعلها لا تتنافى معها كالنص الذي يقول: «حرية

---

(١) أخرجه مسلم في «الإِمَارَةِ»، باب: «وُجُوبِ مُلازَمَةِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ...»، ح(٣٤٣٦).

(٢) في الأصل: «ما».

(٣) في الأصل: «أنه».

(٤) في الأصل: «بقواعدها».

الاعتقاد مكفولة».

وأحب أن أنبه هنا إلى الفرق بين الدستور وبين القوانين التي تسير عليها الحاكم، إذ إن كثيرًا من مواد هذه القوانين فيه ما يتنافى صراحة مع ما جاء به الإسلام أو ما يعطل صراحة ما جاء به الإسلام وذلك بحث آخر سنعرض له في موضعه إن شاء الله.

ومع أن النظام النيابي والدستور المصري في قواعدهما الأساسية لا يتنافيان مع ما وضعه الإسلام في نظام الحكم، فإننا نصرح بأن هناك قصورا في عبارات الدستور، وسوءًا في التطبيق، وتقصيرا في حماية القواعد الإنسانية التي جاء بها الإسلام وقام عليها الدستور، أدت جميعًا إلى ما نشكو منه من فساد، وما وقعنا فيه من اضطراب في كل هذه الحياة النيابية.

وسنتناول هذا الإيجاز بشيء من البيان:

[الـــــوزارة:]

فأما عن مسئولية الحاكم فإن الأصل فيها في النظام الإسلامي أن المسئول هو رئيس الدولة كائنا من كان، له أن يتصرف، وعليه أن يقدم حساب تصرفه للأمة، فإن أحسن أعانته، وإن أساء قومته، ولا مانع في الإسلام في أن يفوض رئيس الدولة غيره في مباشرة هذه السلطة وتحمل هذه المسئولية، كما عرف ذلك في «وزارات التفويض» في كثير من العهود الإسلامية، ورخص الفقهاء المسلمون في ذلك وأجازوه ما دام فيه مصلحة، والقاعدة في مثل هذه الأمور رعاية المصلحة العامة، قال الماوردي في كتاب (الأحكام السلطانية): «والوزارة على ضربين: وزارة تفويض، ووزارة تنفيذ.

فأما وزارة التفويض، فهو أن يستوزر الإمام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه، وإمضاءها على مقتضى اجتهاده، وليس يمتنع جواز هذه الوزارة، قال الله تعالى حكاية عن نبيه موسى -عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩-٣٢]، فإذا جاز ذلك في النبوة كان في الإمامة[1] أجوز ولأن ما وكل إلى الإمام من تدبير الأمة لا يقدر على مباشرة جميعه إلا باستنابة ونيابة الوزير المشارك له في التدبير أصح في تنفيذ الأمور من تفرده بها ليستظهر

---

(١) في الأصل: «الأمانة».

بها على نفسه، وبها يكون أبعد من الزلل وأمنع من الخلل... إلخ»[١].

والأصل في هذه المسئولية في النظام النيابي، أن المسئول هو الوزارة ولا مسئولية على رئيس الدولة. وقد جرى على هذا الوضع الدستور الإنجليزي والدستور المصري، فصرح كل منهما بمسئولية الوزارة، وإخلاء رئيس الدولة من كل مسئولية واعتباره لا يخطئ، واعتبار ذاته مصونة لا تمس.

على أنه لا مانع في النظام النيابي من تحميل رئيس الدولة المسئولية واعتبار الوزارة تابعة له في ذلك، كما يقرر ذلك دستور الولايات المتحدة. والغريب أن تشير كتب الفقه الإسلامي إلى هذا الوضع أيضًا، وتسمى هذه الوزارة «وزارة التنفيذ» فيقول الماوردي في كتاب «الأحكام السلطانية» أيضًا: «وأما وزارة التنفيذ فحكمها أضعف وشروطها أقل؛ لأن النظر فيها مقصور على رأي الإمام وتدبيره، وهذا الوزير وسط بينه وبين الرعايا والولاة، يؤدي عنه ما أمر، وينفذ عنه ما ذكر ويُمضي ما حكم... إلخ»[٢] ولا شك أن هذا من سعة مادة الفقه الإسلامي ومرونته وصلاحيته لكل زمان ومكان.

[غموض الدستور المصري:]

هذه هي قواعد النظام الإسلامي والنيابي معًا في «مسئولية الحاكم»، فماذا فعلنا نحن في مصر؟ وقفنا في منتصف الطريق نصًا وتطبيقًا، وجاء دستورنا في هذا المعنى غامضًا مقتضبًا غير واضح ولا مفصل، مع أنها أهم نقطة في تحديد لون الحياة النيابية أو الإسلامية التي نحياها.. وشرحا لذلك سأسوق ما كتبه الأستاذان الفاضلان الدكتور «إبراهيم مدكور» عضو مجلس الشيوخ المصري، والأستاذ «مريت غالي» في مذكرتهما «نحو نظام جديد» قالا تحت عنوان: «الدستور وغموضه»:

«فأما العامل الأول فملخصه أن دستورنا على الرغم من دقته وضبط عبارته، قد وقع في نفس الغموض الذي وقعت فيه دساتير أسبق منه، وترك أهم نقطة في الحكم النيابي دون أن يحددها التحديد الكافي، ونعني بها سلطة الوزراء وصلتهم بالشعب ممثلاً في نوابه من جهة، وإشرافهم على ما يؤدي إليه من خدمات عن طريق المصالح والإدارات من جهة أخرى. كما أجمل إجمالاً مخلاً في بيان موقفهم من رئيس الدولة

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، (١/ ٣٦).
(٢) السابق، (١/ ٤٣).

ومليك البلاد، واكتفى بأن يصوغ هذا في عبارات تصلح لكل ما يراد منها. وواضح أن الوزارة هي العمود الفقري لهيكل النظام النيابي كله، وحلقة الاتصال بين التشريع والتنفيذ، ومبعث الحياة والحركة في نظام يراد به احترام سلطة الشعب مع تصريف شئون الدولة تصريفًا محكمًا وسريعًا.

وإذا ما رجعنا إلى الدستور وجدنا أن ما جاء فيه متصلاً بهذه النقطة الحساسة لا يكاد يتجاوز ثلاثة أسطر كلها غموض وعموم، فيقرر في المادة (٢٩): «أن السلطة التنفيذية يتولاها الملك في حدود هذا الدستور». وفي المادة (٤٨): «الملك يتولى سلطته بواسطة[1] وزرائه». وفي المادة (٤٩): «الملك يعين وزراءه ويقيلهم». وفي المادة (٥٧): «مجلس وزرائه هو المهيمن على مصالح الدولة». وفي المادة (٦١): «الوزراء مسئولون متضامنون لدى مجلس النواب عن السياسة العامة للدولة، وكل منهم مسئول عن أعمال الوزراء»، وفي المادة (٦٢)[2]: «أوامر الملك -شفهية أو كتابية- لا تخلي الوزراء من المسئولية على أية حال».

تلك تقريبًا جملة النصوص المتصلة بهذا الموضوع، ولا نظن أن فيها ما يكفي مطلقًا لحل أي مشكل من المشاكل التي أشرنا إليها إلخ.

وقد أفاضا بعد ذلك في الشرح والتمثيل بما يفصل ما تقدم من هذه المعاني.

والمهم أن هذه النقطة -وهي لب الأمر- تحتاج إلى إيضاح واستقرار، وهي القاعدة الأولى من قواعد «النظام الإسلامي» أو النيابي على السواء، وبغير ذلك لا يمكن أن تستقيم الأمور وتسلم. وفي الكلمة التالية نتناول القاعدتين الباقيتين إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

(١) في الأصل: «بوساطة».

(٢) في نسخ الرسائل المطبوعة: «٦٣».

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد

مشاكلنا الداخلية في ضوء نظام الإسلام

٣ - نظام الحكم[(١)]

﴿فَاحْكُم[(٢)] بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].

وأما عن وحدة الأمة؛ فقد أبنت أن الإسلام الحنيف يفترضها افتراضًا، ويعتبرها جزءًا أساسيًا في حياة المجتمع الإسلامي لا يتساهل فيه بحال، إذ إنه يعتبر الوحدة قرين الإيمان: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، كما يعتبر الخلاف والفرقة قرين الكفر كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، أي: بعد وحدتكم متفرقين. وكما قال رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم وجوه[(٣)] بعض»[(٤)]، فعبر بكلمة الكفر عن الفرقة والخلاف وأن يضرب بعضهم وجوه بعض.

وأعتقد أن الحكم النيابي -برلمانيًا وغير برلماني- لا يأبى هذه الوحدة، وبخاصة إذا كان لون الحياة الاجتماعية في الأمة واحدًا في أصوله واتجاهاته العامة، كما هو شأن الأمم الإسلامية جميعًا في هذه الأيام، وإنما لازمت الحزبية والفرقة والخلاف هذا النظام النيابي في أوروبا وغيرها؛ لأنها نشأت على أنقاضها، وكانت الخلافات المتكررة الدامية بين الشعوب وحكامها هي السبب في نشأته فعلاً، مع تباين المشارب واختلاف الآراء. أما الأمم الإسلامية، فقد حماها الله من ذلك كله وعصمها بوحدة الإسلام وسماحته من

---

(١) مجلة الإخوان المسلمين اليومية، العدد (٤٨١)، السنة الثانية، ١٣ محرم ١٣٦٧هـ- ٢٦ نوفمبر١٩٤٧م، ص(١).

(٢) في الأصل: «وأن احكم».

(٣) في الروايات: «رقاب».

(٤) أخرجه البخاري في «العِلْـم»، باب: «الإنْصَاتِ لِلْعُلَمَاءِ»، ح(١١٨)، ومواضع أخر، ومسلم في «الإيمَانِ»، باب: «بَيَانِ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِي ﷺ: «لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»، ح(٩٨)، ومواضع أخر.

هذا التبلبل والاضطراب.

ومع هذا؛ فإن الحكم النيابي في أعرق مواطنه لم يقم على هذه الحزبية المسرفة، فليس في إنجلترا إلا حزبان هما اللذان يتداولان فيها الأمر، وتكاد تكون حزبيتهما داخلية بحتة، وتجمعهما دائما المسائل القومية المهمة، فلا تجد لهذه الحزبية أثرا البتة، كما أن أمريكا ليس فيها إلا حزبان كذلك، لا نسمع عنهما شيئا إلا في مواسم الانتخابات، أما فيما عدا هذا فلا حزبية ولا أحزاب. والبلاد التي تطورت في الحزبية وأسرفت في تكوين الأحزاب ذاقت وبال أمرها في الحرب في السلم على السواء، وفرنسا أوضح مثال في ذلك.

وإذا كان الأمر كذلك، وكانت وحدة الأمة أساسا في النظام الاجتماعي الإسلامي ولا يأباها النظام النيابي، فإن من الواجب أن نتحول سريعًا إلى الوحدة بعد أن أهلكت الحزبية السياسية في مصر الحرث والنسل.

[الأحزاب المصرية:]

لقد انعقد الإجماع على أن الأحزاب المصرية هي سيئة هذا الوطن الكبرى، وهي أساس الفساد الاجتماعي الذي يصطلي بناره الآن، وأنها ليست أحزابًا حقيقية بالمعنى الذي تعرف به الأحزاب في أي بلد من بلاد الدنيا، فهي ليست أكثر من سلسلة انشقاقات أحدثتها خلافات شخصية بين نفر من أبناء هذه الأمة، اقتضت الظروف والحوادث في يوم ما أن يتحدثوا باسمها وأن يطالبوا بحقوقها القومية، كما انعقد الإجماع على أن هذه الأحزاب لا برامج لها ولا مناهج، ولا خلاف بينها في شيء أبدًا إلا في الشخصيات، وآية ذلك واضحة فيما تعلن من بيانات خارج الحكم وفيما تطلع به من خطب العرش داخل الحكم، وبما أن الأحزاب هي التي تقدم الشيوخ والنواب، وهي التي تسيّر دفة الحكم في الحياة النيابية، فإن من البديهي ألا يستقيم أمر الحكم وهذه حال من يسيّرون دفته.

وهذا الكلام الذي انعقد إجماع الأمة عليه، أعلنه شيوخ ونواب وفقهاء دستوريون في صراحة ووضوح. ومن قرأ ما كتبه «علوبة باشا» في كتابه (مبادئ وطنية)، أو الأستاذ «حسن الجداوي» في كتابه (عيوب الحكم في مصر) أو غيرهما من الكتاب، رأى صدق ما نقول، وحسبنا أن ننقل هنا فقرة [من كتاب الفقيه الدستوري الأستاذ «سيد صبري»][1]

(١) في الأصل: «من كتاب الفقيه الدستوري الأستاذ «سيد صبري» في كتابه».

(مبادئ القانون الدستوري) عن الأحزاب المصرية قال [فيه][١]: «والواقع أنه لم يعد لأغلب الأحزاب السياسية في مصر برنامج يدافع عنه أنصاره، بل أصبح كل حزب عبارة عن وزير سابق له أنصار ومريدون، ولهذه النتيجة أهميتها، فإن الانتخاب لن يقوم على المفاضلة بين البرامج، فقد أصبحت واحدة للجميع، بل سيقوم على الثقة بالأشخاص أو المفاضلة بينهم، وستكون الانتخابات شخصية لا حزبية بالمعنى المفهوم لدى الشعوب الغربية، وبديهي أن بقاء الأحزاب على هذا المنوال يقسم البلاد شيعًا وأحزابًا ويثير الشقاق، والمنازعات بين الأفراد والأسرات بلا سبب مفهوم ولا أساس معقول». وإذا أضيف إلى هذا أن مصر ما زالت بلدًا محتلاً إلى الآن، وأن الذي يستفيد من هذه الفرقة هم المحتلون الغاصبون فقط، وأنه إذا استسيغ الخلاف -وهو غير مستساغ بحال- في أمة [من الأمم، فإن أمة][٢] وادي النيل هي أحوج ما تكون إلى أكمل معاني الوحدة لتتجمع قواها في نضال الاستقلال وفي عمل للإصلاح الداخلي- كان الأمر أخطر من أن يهمل أو يستهان به.

[حل الأحزاب المصرية:]

وإذا كان الأمر كذلك، فلا تدري ما الذي يفرض على هذا الشعب الطيب المجاهد المناضل الكريم هذه الشيع والطوائف من الناس التي تسمي نفسها الأحزاب السياسية؟

إن الأمر جد خطير، ولقد حاول المصلحون أن يصلوا إلى وحدة -ولو مؤقتة- لمواجهة هذه الظروف العصيبة التي تجتازها البلاد، فيئسوا وأخفقوا، ولم يعد الأمر يتحمل أنصاف الحلول، ولا مناص بعد الآن من أن تحل هذه الأحزاب جميعًا، وتجمع قوى الأمة في حزب واحد يعمل لاستكمال استقلالها وحريتها، ويضع أصول الإصلاح الداخلي العامة، ثم ترسم الحوادث بعد ذلك للناس طرائق التنظيم في ظل الوحدة التي يفرضها الإسلام[٣].

---

(١) زيادة من عندنا.

(٢) زيادة من عندنا ليستقيم المعنى.

(٣) كان هناك تعليق على بعض ما ورد في المقالة من الأستاذ توفيق الرخاوي، وقد رد الأستاذ البنا عليه بمقال عنوانه: «الإيمان والوحدة- والكفر والفرقة» قال فيه: «كتب إلينا الصديق الفاضل الأستاذ «توفيق الرخاوي» يلفت النظر إلى أن تفسير الإيمان بالوحدة وتفسير الكفر بالفرقة في مقال

«وحدتنا» في العدد (٤٨١) استعمال مجازي لابد له من قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي، وإن هذه القرينة لم تظهر في المقال المذكور.
ونشكر للأخ الفاضل ملاحظته، ولم نذكر القرينة التي تصرف اللفظ إلى هذا المعنى اختصارًا، وهي ما روي في الصحيح عن زيد بن أسلم قال: «مر شاس بن قيس اليهودي وكان شيخًا عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين، فمر بنفر من الأوس والخزرج وهم في مجلس يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، وقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فأمر شابا من اليهود -كان معه- فقال له: اعمد إليهم واجلس معهم، ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار، وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب، وهما أوس بن قبطي أحد بني حارثة -من الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا، فقال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعا، وقالا قد فعلنا، السلاح السلاح موعدكم الظاهر وهي الحرة، فخرجوا إليها وانضمت الأوس والخزرج بعضهم إلى بعض على دعواهم في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشر. المسلمين، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم! بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا! الله الله». فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا واعتنق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين. قال جابر: فما رأيت يوما أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني شاس اليهودي أصحابه ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، أي: بعد وحدتكم متفرقين كما ترى. والله أعلم». [جريدة الإخوان المسلمين اليومية، العدد (٤٨٨)، السنة الثانية، ٢١ محرم ١٣٦٧هـ- ٤ديسمبر ١٩٤٧م، ص(٣)]».

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد

مشاكلنا الداخلية في ضوء نظام الإسلام

٤ - نظام الحكم[١]

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

[احترام رأي الأمة - نظام الانتخاب:]

وأما عن احترام رأي الأمة ووجوب تمثيلها وإشراكها في الحكم إشراكًا صحيحًا، فإن الإسلام لم يشترط استبانة رأي أفرادها جميعًا في كل نازلة، وهو المعبر عنه في الاصطلاح الحديث «بالاستفتاء العام»، ولكنه اكتفى في الأحوال العادية «بأهل الحل والعقد» ولم يعينهم بأسمائهم، ولا بأشخاصهم، والظاهر من أقوال الفقهاء ووصفهم إياهم أن هذا الوصف ينطبق على ثلاث فئات هم:

١- الفقهاء المجتهدون الذين يعتمد على أقوالهم في الفتيا واستنباط الأحكام.

٢- وأهل الخبرة في الشئون العامة.

٣- ومن لهم نوع قيادة أو رياسة في الناس كزعماء البيوت والأسر وشيوخ القبائل ورؤساء الجماعات.

فهؤلاء جميعًا يصح أن تشملهم عبارة «أهل الحل والعقد».

ولقد رتب النظام النيابي الحديث طريق الوصول إلى اختيار «أهل الحل والعقد» بما وضع الفقهاء الدستوريون من نظم الانتخاب وطرائقه المختلفة، والإسلام لا يأبى هذا التنظيم ما دام يؤدي إلى اختيار أهل الحل والعقد، وذلك ميسور إذا لوحظ في أي نظام من نظم الانتخاب تحديد صفات أهل الحل والعقد، وعدم السماح لغيرهم بالتقدم للنيابة عن الأمة.

---

(١) جريدة الإخوان المسلمين اليومية، العدد (٤٨٢)، السنة الثانية، ١٤ محرم ١٣٦٧هـ- ٢٧ نوفمبر ١٩٤٧م، ص(١).

[عيوب نظم الانتخاب في مصر:]

ونحن في مصر قد أخذنا بنظام الانتخاب المباشر تارة في قانون سنة ١٩٢٣م، وبنظام الانتخاب على درجتين في قانون سنة ١٩٣٠م، وكلاهما في الواقع لم يحقق الغرض المقصود منه، وظهرت له حين التطبيق عيوب يجب أن نعمل على إصلاحها بتعديل شامل، وليس الخطأ عيبًا في ذاته، ولكن الرضا به والاستمرار عليه والدفاع عنه هو الخطأ كل الخطأ.

ولقد شعر الجميع بقصور قانون الانتخاب الحالي عن الوفاء بالغرض الذي وضع من أجله، وهو الوصول إلى اختيار الصالحين للنيابة عن الأمة، ووجهت إليه انتقادات مرة كشفت عن كثير من عيوبه التي من أهمها ما ذكره الدكتور «سيد صبري» في كتابه (مبادئ القانون الدستوري): «أنه أوجد هيئة ناخبة لا يمكنها تحقيق الغرض من الانتخاب على الوجه المطلوب، وأنه لم يحقق فكرة تمثيل الأمة تمثيلاً صحيحًا، وأنه لم يوصل إلى إيجاد هيئة تعمل للصالح العام مجردة من كل قيد...».

وقد أورد بعد ذلك إحصائية دقيقة خلص منها بالأرقام إلى أن قرارات البرلمان المصري في أدواره المختلفة لا تعبر عن رأي الأمة، ولا عن رأي أكثريتها، ولا عن رأي أقلية محترمة من أبنائها، وإنما تعبر عن رأي نسبة ضئيلة من مجموع من لهم حق الانتخاب لم تصل يومًا ما إلى ١٢٪ وبيان ذلك:

أن مجلس نواب ١٩٢٦ لا تمثل قراراته -مع أنها صحيحة ونافذة بحكم القانون- إلا ١٠.٧٥٪ من هيئة الناخبين، ومجلس ١٩٢٩ نسبة التمثيل فيه ٩.٧٥٪، ومجلس ١٩٣٦ النسبة فيه ٩.٢٥٪، ومجلس ١٩٣٨ النسبة فيه ١١.٧٥٪، ومجلس ١٩٤٢ النسبة فيه ٩.٧٥٪، والمجلس الحالي ليس أفضل مما تقدمه.

فكيف يقال بعد هذا: إن ذلك تعبير عن رأي الأمة وتمثيل لها تمثيلاً صحيحًا؟!

[تعديل وإصلاح:]

لابد من تعديل وإصلاح لقانون الانتخاب، ومن وجوه هذا الإصلاح الضرورية:

١- وضع صفات خاصة للمرشحين أنفسهم، فإذا كانوا ممثلين لهيئات فلا بد أن يكون لهذه الهيئات برامج واضحة وأغراض مفصلة يتقدم على أساسها هذا المرشح، وإذا لم يكونوا [ممثلين لهيئات][1] فلابد أن يكون لهم من الصفات والمناهج الإصلاحية ما

(١) في الأصل: «هيئات».

يؤهلهم للتقدم للنيابة عن الأمة، وهذا المعنى مرتبط إلى حد كبير بإصلاح الأحزاب في مصر، وما يجب أن يكون عليه أمر الهيئات السياسية فيها.

٢- وضع حدود للدعاية الانتخابية وفرض عقوبات على من يخالف هذه الحدود، بحيث لا تتناول الأسر ولا البيوت ولا المعاني الشخصية البحتة التي لا دخل لها في أهلية المرشح وإنما تدور حول المناهج والخطط الإصلاحية.

٣- إصلاح جداول الانتخاب وتعميم نظام تحقيق الشخصية منعًا لتزوير الشخصية، فقد أصبح أمر جداول الانتخاب أمرًا عجبًا بعد أن لعبت بها الأهواء الحزبية والأغراض الحكومية طول هذه الفترات المتعاقبة، وفرض التصويت إجباريًا.

٤- وضع عقوبة قاسية للتزوير من أي نوع كان، وللرشوة الانتخابية كذلك.

٥- وإذا عدل إلى الانتخاب بالقائمة لا الانتخاب الفردي كان ذلك أولى وأفضل، حتى يتحرر النواب من ضغط ناخبيهم، وتحل المصالح العامة محل المصالح الشخصية في تقدير النواب والاتصال بهم.

وعلى كل حال فأبواب الإصلاح والتعديل كثيرة، هذه نماذج منها، وإذا صدق العزم وضح السبيل، والخطأ كل الخطأ [في][1] البقاء على هذا الحال والرضا به، والانصراف عن محاولة الإصلاح[2].

* * *

---

(١) ناقصة من الأصل.

(٢) أوردت جريدة الإخوان هذا التعليق من أحد الإخوان والذي رد عليه الإمام البنا: «قانون الانتخاب» جاء من الأخ العزيز رشاد أفندي العاصي خطاب يلاحظ فيه أن انتخابات قانون سنة ١٩٢٣ لم تكن مباشرة، ولكنها كانت على درجتين، لا كما ورد في المقال من أن قانون سنة ١٩٢٣ كان ينص على أن الانتخابات مباشرة.

ونحن نشكر لحضرته هذا التصحيح، ونفيد بأن قانون ١٩٢٣م الذي صدر مع الدستور نص على الانتخاب على درجتين بطريقة المندوبين الثلاثينيين حقا وانتخب أول برلمان مصري على هذا الأساس، ولكن البرلمان حين اجتمع رأى تعديل هذا القانون وأخذ بالانتخاب المباشر، وصدر بذلك القانون رقم ٤ لسنة ١٩٢٤ تعديلا لقانون ١٩٢٣ وألغي هذا القانون في سنة ١٩٣٠ مع إبقاء الدستور، ولكنه أعيد في صورة القانون رقم ١٤٨ لسنة ١٩٣٥ وهو المعمول به الآن وجزى الله الأخ خيرًا» [الإخوان المسلمون اليومية، العدد (٤٨٨)، السنة الثانية، ٢١ محرم ١٣٦٧هـ- ٤ ديسمبر ١٩٤٧م، ص(٣)].

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد

مشكلاتنا الداخلية في ضوء نظام الإسلام

٥- نظام الحكم[١]

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

عرضت في الكلمات السابقة لدعائم الحكم الصالح الثلاث في النظام الإسلامي أو النيابي على السواء، وهي:

١- مسئولية الحاكم

٢- ووحدة الأمة

٣- واحترام إرادتها

وأشرت -في إيجاز بالغ- إلى نواحي الغموض في التشريع، والقصور والفساد في التطبيق في أسلوب الحكم الذي جرينا عليه منذ صدور الدستور المصري إلى الآن، وقد كانت نتيجة هذا الغموض والقصور والفساد ما نحن فيه من حيرة وقلق وارتباك، وما وصلنا إليه من فرقة وتمزق وشتات.

[ضعف الحكومات:]

لا يجادل أحد في أن الحكومات المتعاقبة قد ضعفت عن أداء واجبها، وفقدت معظم هيبتها في النفوس كحكومة، بسبب هذا التجريح بالحق وبالباطل الذي تمليه الروح الحزبية البحتة، وبسبب هذا العجز الناتج عن عدم تحديد المسئولية والاضطلاع بها كاملة غير منقوصة، ولولا أن النفوس في مصر مطبوعة بطابع الطاعة والاستسلام والأعمال تسير بطريق روتيني لا تجديد فيه ولا ابتكار -لتعطل كل شيء، ولعجز الدولاب الإداري المضطرب عن أن ينهض بحاجات الشعب [أو][٢] أن يؤدي للناس عملاً.

---

(١) مجلة الإخوان المسلمين اليومية، العدد (٤٨٦)، السنة الثانية، ١٩ محرم ١٣٦٧هـ- ٢ ديسمبر ١٩٤٧م، ص(٢).

(٢) ناقصة من الأصل.

[هيبة القانون:]

ولا شك أن سلطان القانون قد تزعزع وفقد معظم احترامه كذلك، بسبب هذه الاستثناءات والمحسوبيات والحيل المتكررة، والاعتداء أحيانًا بنسخ القانون لغرض شخصي، ولو أن هذا النسخ بقانون في ظاهر الأمر، ولكن الدوافع تكون معروفة دائمًا ولا تخفى على أحد، فيعمل ذلك عمله في النفوس وينال من هيبة القانون واحترام النظام.

[حزبية عمياء:]

ولا شك أن نار الخصومة والحقد قد اضطرمت في نفوس[1] الحاكمين والمحكومين على السواء، بفعل هذه الحزبية الخاطئة التي لم نفهمها -نحن في مصر- في يوم من الأيام على أنها خلاف في الرأي لا يفسد للود قضية، بل فهمناها عداوة وبغضاء تتعدى النظر في المصالح العامة إلى المقاطعة في كل الشئون عامة وخاصة، وإلى أن نرى الحق في جانب خصومنا الحزبيين باطلاً، والباطل في جانب أنصارنا الحزبيين حقا، ونصدر عن هذا الشعور في كل تصرفاتنا وصلاتنا، ويستفحل الداء ويستشري حتى في أحرج المواقف، فلا نستطيع أن نوحد صفوفنا في أي موقف قومي مهما كان يتوقف عليه صلاح أمرنا ومستقبل بلدنا.

وهذا الشعور البغيض والفهم الخاطئ للحزبية الذي تحول إلى عداوة متأصلة قد كان من نتائجه: أن انصرف معظم الجهود الفكرية والعملية إلى أمرين استغرقا كل اهتمام رجالنا، وهما: الإيقاع بالخصوم الحزبيين أو اتقاء مكائدهم، فالحاكم يصرف جل همه في هاتين الناحيتين، والمعارضة لا تقل عن الحاكم اهتمامًا بها، وفي سبيل ذلك تضيع الحقوق، وتتعطل المصالح، ويرثى الأصدقاء، ويشمت الأعداء، ويستفيد الخصم الجاثم على صدر البلاد.

هذه الحال قد أنتجت التحطم في المعنويات، والفساد والاضطراب في الماديات، وقد بلغ الأمر منتهاه ولم يعد في قوس الصبر منزع[2]، ولا بد من تغيير حازم حاسم سريع..

---

(١) في الأصل: «نفس».

(٢) مقتبس من قول الشاعر إبراهيم قفطان من الطويل:

وقائلة هيهات تأمل سلوةً ولم تبق في قوس الصبر منزعا

فإما أن يفقه أولو الأمر هذه الحقيقة ويقدروها فيبادروا في سرعة إلى إجراء التغيير الصالح برأيهم وعلى أيديهم، وفي ذلك السلامة والاستقرار، ولا زال في الوقت متسع للإصلاح. وإما أن يظلوا في هذا الانصراف فتسبقهم الحوادث، ويفلت من يدهم الزمام، ولا يدري عاقبة ذلك إلا الله.

يا أولي الأمر في هذا البلد، ويا دولة رئيس الحكومة، ويا رجال الأزهر الشريف، ويا زعماء الأحزاب والهيئات والجماعات، ويا ذوي الغيرة على هذا الوطن الأسيف:

تداركوا الأمر قبل الفوات.. وأمامكم سفينة النجاة من نظام الإسلام.. ولله عاقبة الأمور.

ألا هل قد بلغت... اللهم فاشهد.

* * *

(١) أصول الإسلام كنظام اجتماعي

اتجاه النهضة الجديدة في العالم الإسلامي[١]

إلى الإسلام:

يرى المراقبون الاجتماعيون والسياسيون والمعنيون بتطورات الحياة في الأمم والشعوب أن العالم الإسلامي -وفي مقدمته العالم العربي طبعًا- يتجه بنهضته الحديثة اتجاهًا إسلاميًّا، وأن هذا الاتجاه يقوى تياره بالتدريج.

وبعد أن كان الكتاب والمفكرون والعلماء والزعماء يتغنون بأصول الحضارة الأوروبية ووجوب الاصطباغ بصبغتها والأخذ الكامل بأساليبها ومناهجها، تبدلت هذه النغمة وحل محلها التحفظ والحذر، وارتفعت[٢] الأصوات المنادية بوجوب العودة إلى أصول الإسلام وتعاليمه ومناهجه، وتقريب الحياة العصرية في هذه الشعوب إليها -بقدر الإمكان- تمهيدًا للاصطباغ الكامل بصبغة الإسلام.

أسباب:

ويزعج هذا الاتجاه كثيرًا من الحكومات والدول الغربية التي عاشت طوال القرون الماضية في عقلية الذي لا يعرف عن الإسلام إلا التعصب والجمود، ولا يرى في المسلمين إلا شعوبًا مستضعفة للتسخير، وأوطانًا خصبة للاستعمار، وأخذوا يتحسبون من هذه الحركة، ويذهبون في تفسيرها وتأويلها كل مذهب، فمن قائل: إنها نتيجة قيام الهيئات المتطرفة والجماعات المتعصبة. ومن قائل: إنها رد فعل للضغط السياسي والاقتصادي الذي شعرت به هذه الأمم الإسلامية في هذه الأعصار. ومن قائل: إنها وسيلة يتوصل بها بعض طلاب الحكم والجاه إلى الظهور والمنصب. وكل هذه الأسباب -فيما نعتقد- بعيدة عن الحقيقة كل البعد، وهذا الاتجاه ليس إلا نتيجة لعوامل ثلاثة فيما نرى:

إفلاس الغرب:

أولها: إفلاس الأصول الاجتماعية التي قامت عليها حضارة الأمم الغربية، فحياة الغرب التي قامت على العلم المادي والمعرفة الآلية والكشف والاختراع وإغراق أسواق

---

(١) مجلة الشهاب، العدد (٢)، السنة الأولى، ١ صفر ١٣٦٧هـ-١٤ ديسمبر ١٩٤٧م، ص(٢٧-٣٢).

(٢) في الأصل: «ارتفعت».

العالم بمنتجات العقول والآلات، لم تستطع أن تقدم للنفس الإنسانية خيطًا من النور أو بصيصًا من الأمل أو شعاعًا من الإيمان، ولم ترسم للأرواح القلقة أي سبيل للراحة والاطمئنان، وليس الإنسان آلة من الآلات؛ ولهذا كان طبيعيًا أن يتبرم بهذه الأوضاع المادية البحتة، وأن يحاول الترفيه عن نفسه.

ولم تجد الحياة الغربية المادية ما ترفه به عنه إلا الماديات أيضًا من الآثام والشهوات، والخمور والنساء والأحفال الصاخبة، والمظاهر المغرية التي تلهى بها حينًا، ثم ازداد بها بعد ذلك جوعًا على جوع، وأحس بصرخات روحه تنطلق عالية تحاول تحطيم هذا السجن المادي والانطلاق في الفضاء، واسترواح نسمات الإيمان والعزاء.

كمال الإسلام:

وثانيها -وهو العامل الإيجابي في الموضوع- اكتشاف المفكرين من رجال الإسلام ما في أصوله وقواعده من سمو ورقي وصلاحية واكتمال، وأنها أكمل وأدق وأفضل وأجمع وأشمل من كل ما كشفت عنه الفلسفات الاجتماعية والعقول المصلحة إلى الآن.

وقد كان المسلمون غفلوا عن ذلك حينًا من الدهر، فلما كشف الله عن بصائر مفكريهم، وقارنوا ما عندهم من قواعد دينهم الاجتماعية بما يتحدث عنه كبار الاجتماعيين وأساطين[1] المصلحين وجهابذة[2] المفكرين، ووجدوا البون شاسعًا والفرق بعيدًا بين كنوز هذا الميراث الضخم وبين ما يلهو به هؤلاء، لم يملكوا أنفسهم من أن ينصفوا عقولهم وتاريخهم وشعوبهم، وأن ينادوا بنفاسة هذا الميراث، وأن يهيبوا بهذه الأمم الغافلة -إسلامية وغير إسلامية- أن تستفيد من هذا الإرشاد الرباني الكريم، وأن تنهج نهج هذا الصراط السوي المستقيم.

طبيعة التطور:

وثالثها: طبيعة التطور الاجتماعي بعد حربين طاحنتين اشتركت فيهما دول العالم جميعًا، وتناولتا النفوس والأوضاع والشعوب والأفراد، ونبتت بعدهما طائفة من المبادئ الإصلاحية والنظم الاجتماعية، قامت على أساسها دول، ونهضت بتطبيقها أمم، ثم لم

---

(١) يقال للرجل الطويل الرجلين والظهر: أُسطوان، وكذلك الجمل إذا كان مرتفعًا طويل العنق. [لسان العرب، مادة (سطن)].

(٢) الجِهبذ والجِهْباذ: الناقد الخبير بغوامض الأمور. [المعجم الوجيز، ص(١٢٢)].

يمض كبير وقت حتى تناولتها يد التبديل والتغيير، أو الهدم والتدمير، والمفكرون من المسلمين ينظرون ويرقبون ويوازنون ويقارنون، ويرجعون إلى ما بين أيديهم من كتاب ربهم -وهو مشرق- ومن سنة نبيهم- وهي بينة- ومن تاريخهم -وهو مجيد- فلا يرون لنظام من هذه النظم حسنة من الحسنات إلا وجدوا أنها مقررة في نظامهم الإسلامي الاجتماعي، وأنهم سبقوا إليها فتحدثوا عنها أو عملوا بها، ولا يرون لنظام من هذه النظم سيئة من السيئات إلا وجدوا أن نظامهم الإسلامي الاجتماعي قد حذر منها واحتاط لها ووصف طريق الوقاية من نتائجها وآثارها.

سادت العالم -حينًا من الدهر- هذه النظم الديمقراطية، وانطلقت الحناجر في كل مكان تسبح وتقدس بما جاء به هذا النظام الديمقراطي من حرية للأفراد وللشعوب على السواء، ومن إنصاف للعقل الإنساني بحرية التفكير، وللنفس الإنسانية بحرية العمل والإرادة، وللشعوب بأن تكون مصدر السلطات، وجاء النصر في الحرب العالمية الأولى معززًا لهذه الأفكار متوجًا إياها بأكاليل الغار.

ثم لم يلبث الناس أن تبينوا أن حريتها الاجتماعية لم تسلم من الفوضى، وأن حريتها الفردية لم تأخذ الحيطة من الإباحية، وأن سلطة الشعوب لم تبرئ المجتمع من كثير من الديكتاتوريات المستورة التي تضيع معها التبعات، ولا تحدد فيها الاختصاصات، إلى غير ذلك من المثالب والعيوب التي أدت إلى تفكك الأمم والشعوب، وتخلخل نظام الجماعات والبيوت، ومهدت لقيام النظم الديكتاتورية.

فقامت النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا، وأخذ كل من موسوليني وهتلر بيد شعبه إلى الوحدة والنظام والنهوض والقوة والمجد، وسرعان ما خطا هذا النظام بهاتين الأمتين في مدارج الصلاح في الداخل، والقوة والهيبة في الخارج، وبعث في النفوس الآمال الخالدة، وأحيا الهمم والعزائم الراكدة، وجمع كلمة المختلفين المتفرقين على نظام وإمام، وأصبح «الفوهرر» أو «الدوتشي» إذا تكلم أحدهما أو خطب تفزعت الأفلاك والتفت الدهر[1].

ثم ماذا؟ ثم تكشف الأمر عن أن هذا الجهاز القوي المتماسك، الذي فنيت فيه

---

(١) مقتبس من قول البارودي من الطويل:

إِذَا اسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيِّدٌ غَرْبَ سَيْفِهِ ... تَفَزَّعَتِ الأَفْلاكُ وَالْتَفَتَ الدَّهْرُ

إرادات الأفـراد في إرادات الزعمـاء أخطـأ حـين أخطئـوا، فطغـى بطغيـانهم، وانحـرف بانحرافهم، وهوى بسقوطهم، وانتهى كل شيء، وأصبح حصيدًا كأن لم يغن بالأمس بعد أن بذل العالم في حربه الثانية الملايين من زهرة الشباب، والقناطير المقنطـرة مـن الأمـوال والعتاد.

ولمع نجم الاشتراكية والشيوعية بعد ذلك، وزاد في هذا البريق واللمعان معنى الفـوز والانتصار، وتقدمت روسيا السوفيتية إلى الميدان الاجتماعي تبشر بدعوتها، وتدل[1] على الدنيا بنظامها الذي تبدل في ثلاثين عامًا عـدة مـرات، وأخـذت دول الـديمقراطيات، أو بعبارة أدق: دول الاستعمار القديمة البالية أو الجديدة الطامعـة تعـد العـدة لتوقـف هـذا التيار، والصـراع يقـوى ويشـتد تـارة في العلانيـة وأخـرى في الخفـاء، والـدول والأمـم والشعوب الحائرة على مفترق الطرق لا تدري أين السبيل. ومنها أمم الإسلام وشعوب القرآن، والمستقبل في ذلك كله بيد الله، والحكم للتاريخ، والبقاء للأصلح على كل حال.

هذا التطور الاجتماعي وهـذا الصـراع العنيـف القـوي أيقـظ همـم المفكـرين مـن المسلمين، فأخذوا يوازنون ويقارنون، وانتهوا بعد الموازنة إلى نتيجة صحيحة سليمة، هي: التخلص من كل هذه الأوضاع، ووجوب عودة شعوبهم وأممهم إلى الإسلام.

النظم الثلاثة في الصلاة:

قلت ذات مرة مداعبًا للسامعين في إحدى المحاضرات -وكانـت خطـرة موفقـة كـل التوفيق والحمد لله: إن هذه الصلاة الإسلامية التي نؤديها في اليوم خمس مرات ليست إلا تدريبًا يوميًا على نظام اجتماعي عملي، امتزجت فيه محاسـن النظـام الشـيوعي بمحاسـن النظام الديمقراطي بمحاسن النظام الديكتاتوري، فعجبوا وقالوا: كيف كان ذلك؟ فقلت: إن أفضل ما في النظام الشيوعي من حسنات تدعيم معنى المساواة والقضاء على الفوارق والطبقات، ومحاربة الاعتزاز بالملكية التي يكون عنه هـذا التفـاوت، وهـذه المعـاني كلـها يستحضرها المسلم ويشعر بها تمامًا، وتتركز في نفسه إذا دخل المسجد؛ لأنه يستشعر لأول دخوله أن هذا المسجد لله لا لأحد من خلقه، وأنه سواء العاكف فيه والباد، لا صغير فيه ولا كبير، ولا أمير ولا حقير، ولا فـوارق ولا طبقـات، فـإذا صـاح المـؤذن: قـد قامـت الصلاة، قد قامت الصلاة، استوى هذا الجمع خلف إمامه كالبنيان المرصوص، فلا يركع

(١) تدل، أي: تمن، والدّلة: المِنة. والأدل: المنان بعَمَله. [انظر: لسان العرب، مادة (دلل)].

أحد حتى يركع الإمام، ولا يسجد حتى يسجد، ولا يأتي بحركة أو سكون إلا تابعًا له ومقتديًا به ومقلدًا إياه، وهذا هو أفضل ما في النظام الديكتاتوري: الوحدة والنظام في الإرادة والمظهر على السواء، ولكن هذا الإمام مقيد هو نفسه بتعاليم الصلاة ودستورها، فإذا انحرف أو أخطأ في تلاوة أو عمل كان للصبي الصغير وللرجل الكبير وللمرأة المصلية خلفه، كان لكل واحد من هؤلاء الحق كل الحق أن ينبهه إلى خطئه، وأن يرده إلى الصواب وفي أثناء الصلاة[1]، وكان على الإمام كائنًا من كان أن ينزل على هذا الإرشاد، وأن يعدل عن خطئه إلى الحق والصواب، وليس في الديمقراطية أروع من هذه الحسنات. فماذا بقي بعد ذلك لهذه النظم من فضل على الإسلام، وقد جمع محاسنها جميعًا، واتقى بهذا المزج البديع كل ما فيها من سيئات، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

لا مبرر للانزعاج:

والغربيون كما قلت -ومعهم الذين لا يعلمون- ينزعجون أشد الانزعاج لهذا الاتجاه، ويرونه من الخطورة بحيث تجب عليهم محاربته بكل سبيل؛ لأنه ليس أكثر في عرفهم من انتصار للمبادئ الرجعية، وتجميع للأمم الهمجية حولها ضد مبادئ الحضارة والمدنية وشعوب العلم والعرفان والنظام، وهذا وهم عريق في الخطأ، وظلم صارخ للحقائق الواضحة وضوح الشمس في وضح النهار.

ومهمتنا في هذه الكلمات أن نصل معهم إلى أمرين:

أولهما: إثبات سمو أصول النظام الاجتماعي الإسلامي، وفضلها على كل ما عرف الناس، تلك الأصول التي منها:

١- الإخاء الإنساني، والقضاء على روح الكراهية والتعصب.

٢- السلام، وخطأ الذين لا يعلمون في فهم مشروعية الجهاد.

---

(١) وقد أنكر رسول الله ﷺ سكوت أصحابه عن تذكيرهم إياه يوم نسي آية في الصلاة، فلم يدع بذلك عذرا لأحد في السكوت على خطأ إمامه؛ فقد روى أبو داود وغيره من حديث عبد الله بن عمر: أن النبي ﷺ صلى صلاة فقرأ فيها فلبس عليه، فلما انصرف قال لأبي (أبي بن كعب): «أصليت معنا»؟ قال: نعم. قال: «فما منعك؟»، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» ح(٩٠٧).

٣- الحرية، وخطأ الذين يتهمون الإسلام بإباحة الرق، ومصادرة الحريات.

٤- العدل الاجتماعي، وفيه بيان رأي الإسلام في نظام الحكم والطبقات.

٥- الحياة الطيبة، وفيه بيان الخطأ في فهم حقيقة الزهد.

٦- الأسرة، وفيه الكلام على حقوق المرأة والتعدد والطلاق.

٧- العمل والكسب، وفيه الكلام على أنواع الكسب والخطأ في فهم التوكل.

٨- العلم، وفيه خطأ من يتهمون النظام الإسلامي بتشجيع الجهالة والخمول.

٩- النظام، وتقدير الواجب، وفيه خطأ من يظنون في طبيعة الإسلام النقص والإهمال.

١٠- التدين، وفيه حقيقة الإيمان بالله والفضيلة والجزاء.

وبقي بعد ذلك الكثير يأتي في أثناء هذه البحوث، أو يلحق بها، والله المستعان.

وثانيهما: إثبات أن من الخير للإنسانية كلها أن يتجه المسلمون إلى العودة لدينهم، وأن ذلك سيكون أكبر دعائم السلام على الأرض، وأن الدافع إلى ذلك ليس التعصب الأعمى، ولكن الاقتناع التام بفضل ما جاء به الإسلام، وانطباقه تمام الانطباق على أرقى ما كشف عنه التفكير العصري السليم من قواعد الاجتماع الصالحة، ودعائم نظمه القوية الثابتة. والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

* * *

(٢) أصول الإسلام كنظام اجتماعي

إعلان الأخوة الإنسانية والتبشير بفكرة العالمية[١]

جاء الإسلام الحنيف يعلن الأخوة الإنسانية، ويبشر بالدعوة إلى العالمية، ويبطل كل عصبية، ويسلك إلى تحقيق هذه الدعوة الكريمة السامية كل السبل النظرية والعملية.

تقرير وحدة الجنس والنسب:

فقد قرر وحدة الجنس والنسب للبشر جميعًا، «فالناس لآدم، ولا فضل لعربي على عجمي، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»[٢]، وحكمة التقسيم إلى شعوب وقبائل إنما هي التعارف لا التخالف، والتعاون لا التخاذل، والتفاضل بالتقوى والأعمال الصالحة التي تعود بالخير على المجموع والأفراد، والله رب الجميع يرقب هذه الأخوة ويرعاها، ويطالب عباده جميعًا بتقريرها ورعايتها، والشعور بحقوقها والسير في حدودها.

ويعلن القرآن الكريم هذه المعاني جميعًا في بيان ووضوح، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويقول النبي محمد ﷺ في أشهر خطبه في حجة الوداع: «إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَة الجاهلية وتعظمها بالآباء والأجداد، الناس لآدم، وآدم من تراب»[٣]، «لا فضل لعربي على

---

(١) مجلة الشهاب، السنة الأولى، العدد (٣)، ١ربيع الأول ١٣٦٧هـ- ١٣يناير ١٩٤٨م، ص(٤٦-٥٥).

(٢) أخرجه أحمد في «بَاقِي مُسْنَدِ الأَنْصَارِ»، ح(٢٢٣٩١)، وقد صححه الشيخ شعيب الأرنؤوط، (٣٨/ ٤٤٧) طبعة الرسالة.

(٣) أخرج أبو داود في «الأَدَبِ»، باب: «فِي التَّفَاخُرِ بِالأَحْسَابِ»، ح(٤٤٥٢)، والترمذي في «تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، باب: «وَمِنْ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ»، ح(٣١٩٣) ومواضع أخر، وأحمد في «مُسْنَدِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ»، ح(٨٣٨١) وموضع آخر، من طريق أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى الله مِنْ

عجمي، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»[١]، ويقول: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية» رواه أبو داود[٢].

وبهذا التقرير قضى الإسلام تمامًا على التعصب للأجناس أو الألوان في الوقت الذي لا تزال فيه الأمم المتحضرة من أوروبا وأمريكا تقيم كل وزن لذلك، وتخصص أماكن يغشاها البيض، ويحرم منها السود حتى في معابد الله، وتضع القوائم الطويلة للتفريق بين الأجناس الآرية والسامية، وتدعي كل أمة أن جنسها فوق الجميع.

تقرير وحدة الدين:

وقرر الإسلام وحدة الدين في أصوله العامة، وأن شريعة الله -تبارك وتعالى- للناس تقوم على قواعد ثابتة من الإيمان والعمل الصالح والإخاء، وأن الأنبياء جميعًا مبلغون عن الله تبارك وتعالى، وأن الكتب السماوية جميعًا من وحيه، وأن المؤمنين جميعًا -في أية أمة كانوا- هم عباده الصادقون الفائزون في الدنيا والآخرة، وأن الفرقة في الدين والخصومة باسمه إثم يتنافى مع أصوله وقواعده، وأن واجب البشرية جميعًا أن تتدين وأن تتوحد بالدين، وأن ذلك هو الدين القيم وفطرة الله التي فطر الناس عليها، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ويقول القرآن الكريم مخاطبًا النبي محمدًا ﷺ: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]، ويقول النبي محمد ﷺ مصورًا هذا المعنى أبدع تصوير: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا

الجِعْلانِ التي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ». ومن طريق ابن عمر أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلانِ بَرٌّ تَقِي كَرِيمٌ عَلَى اللهِ، وَفَاجِرٌ شَقِي هَيِّنٌ عَلَى اللهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ...».

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وضعت هذه اللبنة؟! فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين» أخرجه الشيخان[1].

وسلك الإسلام إلى هذه الوحدة مسلكًا عجيبًا، فالمسلم يجب عليه أن يؤمن بكل نبي سبق، ويصدق بكل كتاب نزل، ويحترم كل شريعة مضت، ويثني بالخير على كل أمة من المؤمنين خلت، والقرآن يفترض ذلك ويعلنه ويأمر به النبي وأصحابه ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ثم يقفي على ذلك بأن هذه هي سبيل الوحدة، وأن أهل الأديان الأخرى إذا آمنوا كهذا الإيمان فقد اهتدوا إليها، وإن لم يؤمنوا به فسيظلون في شقاق وخلاف، وأن أمرهم بعد ذلك إلى الله فيقول: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

ويدعم هذه الوحدة بين المتدينين والمؤمنين على أساسين واضحين مسلمين لا يجادل فيهما إلا مكابر:

أولهما: اعتبار ملة إبراهيم عليه السلام أساسًا للدين، وإبراهيم -ولا شك- هو مرجع الأنبياء الثلاثة الذين عرفت رسالاتهم وهم: موسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا.

وثانيهما: تجريد الدين من أغراض البشر وأهوائهم، والارتفاع بنسبته إلى الله وحده؛ فنقرأ في سورة البقرة قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] إلى قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ۞ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨-١٣٩]، ثم إلى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

---

(١) أخرجه البخاري في «الْمَنَاقِبِ»، باب: «خَاتِمِ النَّبِيِّينَ ﷺ»، ح(٣٢٧٠، ٣٢٧١)، ومسلم في «الْفَضَائِلِ»، باب: «ذِكْرِ كَوْنِهِ ﷺ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ»، ح(٤٢٣٧) ومواضع أخر، من حديث أبي هريرة.

إن القرآن يثني على الأنبياء جميعًا، فموسى نبي كريم ﴿وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وعيسى ﷺ ﴿رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١]، ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۞ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦]، ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] أكرمتها الملائكة، ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٤٢].

والتوراة كتاب كريم ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، والإنجيل كذلك كتاب كريم، فيه هدى ونور وموعظة، ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦]، وهما والقرآن معهما مصابيح الهداية للناس، ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۞ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣-٤]، وبنو إسرائيل أمة موسى أمة كريمة مفضلة ما استقامت وآمنت، ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]، وأمة عيسى ﷺ أمة فاضلة طيبة ما أخلصت وعملت، ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾ [الحديد: ٢٧].

والتعامل بين المسلمين وبين غيرهم من أهل العقائد والأديان إنما يقوم على أساس المصلحة الاجتماعية والخير الإنساني ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

والجدال يكون بالتي هي أحسن إلا للذين ظلموا، وأساسه التذكير بروابط الرسالة السماوية ووحدة العقيدة الإيمانية، ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وبذلك قضى الإسلام على كل مواد الفرقة والخلاف والحقد والبغضاء والخصومة بين المؤمنين من أي دين كانوا، ولفتهم جميعًا إلى وجوب التجمع حول «شريعة الإسلام»

ونبذ كل ما من شأنه العداوة والخصام بين بني الإنسان، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

فإن أبى الناس إلا أن يفترقوا ويختلفوا ويحتكموا إلى أهوائهم باسم الدين، فإن الإسلام ونبي الإسلام وشريعة الإسلام الإنسانية العامة منهم براء ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۞ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ۞ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٩-١٦٣].

تقرير وحدة الرسالة:

ولهذا جاء النبي «محمد» عليه الصلاة والسلام رسولاً عالميًا لا رسولاً إقليميًا، وأعلن القرآن الكريم هذه العالمية في آيات كثيرة، فقال: ﴿تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الذي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الذي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ومن هنا كانت رسالته أيضًا ختام الرسالات، فلا رسالة تعقبها أو تنسخها، ولا نبي بعده، ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ومن هنا كذلك كانت معجزته الخالدة الباقية هذا القرآن الكريم، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

ولقد كان الناس يتساءلون من قبل هذا العصر: وكيف يكون فرد واحد من أمة واحدة رسولاً للبشر جميعًا؟! فجاء هذا العصر الذي امحت فيه المسافات، وتجمعت فيه أطراف الأرض بهذه المواصلات، وتشابكت فيه مصالح الأمم والدول والشعوب حتى

لكأنها بلد واحد كبير، لا ينفك جانب منه عن الجانب الآخر في قليل ولا في كثير، وانطلقت في أجواز[1] الفضاء أنباء الشرق يعلمها ساعة حدوثها الغرب، وأبناء الغرب يستمع إليها لحظة وقوعها الشرق، وتركزت آمال المصلحين اليوم في «العالم الواحد» و«النظام الواحد» و«الضمان الاجتماعي» و«السلام العالمي» فكان ذلك آية كبرى، ومعجزة أخرى لنبي الإسلام وشريعة الإسلام، وصدق الله العظيم، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الشورى: ٥٣].

وحدة الشعائر:

وقد كان الإسلام «عمليًا» كعادته، فلم يقف عند حد تقرير الأصول النظرية لهذه الوحدة الإنسانية، ولكنه رسم وسائل التطبيق، وقرر الشعائر والشرائع التي يتأكد بها هذا المعنى في النفوس، وتثبت دعائمه في المجتمعات، وهذا هو الفرق بين الرسالات الفلسفية والرسالات الإصلاحية، أو بين الفيلسوف والمصلح، فالفيلسوف يقرر النظريات، والمصلح يرسم قواعد التطبيق ويشرف بنفسه على تمامه، ومن هنا كان الإسلام نظريًا وعمليًا معًا؛ لأنه رسالة الإصلاح الشامل الخالد، وعلى هذا الأساس قرر الشعائر والشرائع التي يتحقق بالعمل بها، ما دعا إليه من إنسانية عالمية وأخوة حقيقية بين البشر على اختلاف أوطانهم وأجناسهم وألوانهم. ومن ذلك:

القبلة:

فعلى المؤمنين أن يصرفوا وجوههم وقلوبهم وأفئدتهم كل يوم خمس مرات على الأقل إلى «الكعبة» التي بناها إبراهيم أبو الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وأن يشعر كل منهم بما يحيط بهذا «الرمز الكريم» من معاني الأخوة والوحدة بين الناس جميعًا، كما أن طواف الطائفين بهذه الكعبة المشرفة إن هو إلا توكيد لهذا الشعور عمليًا كذلك، وينتهز بعض الذين لا يعلمون الحكمة البالغة والنظرة السامية في هذا التشريع الحكيم هذه الفرصة، فيغمزون الإسلام بأنه لا زال متأثرًا ببقية من وثنية العرب، وأن الكعبة والطواف من حولها، والحجر الأسود واستلامه، وما يحيط بذلك من معاني التقديس والتكريم إن هو إلا مظهر من مظاهر هذا التأثر.

---

(١) أجواز: جمع جوز، والجوز هو الوسط، والأجواز: أوساط. [انظر: لسان العرب، مادة (جوز)].

وهذا القول بعيد عن الصحة عار عن الصواب، فالمسلم الذي يطوف بالكعبة أو يستلم الحجر يعتقد اعتقادًا جازمًا أنها جميعًا أحجار لا تضر ولا تنفع، ولكنه إنما يقدس فيها هذا المعنى الرمزي البديع: معنى الأخوة الإنسانية الشاملة، والوحدة العالمية الجامعة، ويذكر في ذلك قول الله العلي الكبير، ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، والرمزية: هي اللغة الوحيدة لتمثيل المعاني الدقيقة، والمشاعر النبيلة التي لا يمكن أن تصورها الألفاظ أو تجلوها العبارات، والذي يعظم عَلَمَ وطنه، يعلم أنه في ذاته قطعة نسيج لا قيمة لها ماديًا، ولكنه يشعر كذلك أنها ترمز إلى كل معاني المجد والسمو التي يعتز بها وطنه، وأنها تصور أدق المشاعر في وطنيته، فهو يحيي هذا العلَمَ ويعظمه ويحترمه ويكرمه لهذه المعاني التي تجمعت جميعًا وتمثلت فيه. والكعبة المشرفة عَلَم الله المركوز في أرضه ليمثل به للناس أوضح معاني أخوتهم، وليرمز به إلى أقدس مظاهر وحدتهم، وإنما كانت بناء ليكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، ومن أجمل الجميل أن يقوم على رفع قواعد هذا البناء إبراهيم الخليل أبو الأنبياء، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وما الحجر الأسود إلا موضع الابتداء، ونقطة التميز في هذا البناء، وعنده تكون البيعة لرب الأرض والسماء على الإيمان والتصديق والعمل والوفاء: اللهم إيمانًا بك -لا بالحجر- وتصديقًا بكتابك لا بالخرافة، ووفاءً بعهدك -وهو التوحيد الخالص- لا الشرك، واتباعًا لسنة نبيك ﷺ محطم الأصنام.

فأين هذه المعاني الرمزية العلوية من تلك المظاهر الوثنية الخرافية؟ إن الكعبة المشرفة رمز قائم خالد، ركز الإسلام من حوله أخلد وأقدس وأسمى معاني الإنسانية العالمية، والأخوة بين بني البشر جميعًا، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

واللغة:

وكما وحد الإسلام القبلة فقد وحد اللغة، وأعلن أن العربية هي لسان القرآن، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وأن القرآن هو لسان المؤمنين، وأن دعوة الإيمان دعوة موجهة إلى العالمين، ويقرر علماء الاجتماع أن اللغة أقوى الروابط بين

الأمم والشعوب، وأقرب وسائل التقريب والتوحيد بينها، وهي نسب من لا نسب له، وقد أدرك الإسلام هذه الحقيقة، ففرض العربية فرضًا على المؤمنين في صلواتهم وعباداتهم، ومنح الجنسية العربية لكل من نطق بلغة العرب وجرى لسانه بها، واعتبر أن العربية هي اللسان. روى الحافظ ابن عساكر، قال جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال: هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل -يعني: النبي ﷺ- فما بال هذا وهذا؟ «مشيرًا إلى غير العرب من الجالسين». فقام إليه معاذ بن جبل ﷺ فأخذ بتلابيبه، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقاله، فقام النبي ﷺ مغضبًا يجر رداءه حتى أتى المسجد، ثم نودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخطبهم قائلاً: «يا أيها الناس، إن الرب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي»[1].

وأي تشجيع أعظم من هذا على تعلم لغة العرب، وتعميمها بين الناس لتكون هي «الاسبرانتو»[2] العالمي الذي يربط البشرية بأقوى روابطها وهي: اللسان. وقد يقال: إن ذلك خيال لا يتحقق، والجواب أنه خيال حققته قوة أصحابه الروحية والحسية من قبل وتحققه من بعد، ولا خيال في الحقيقة إلا مع الضعف، وحقائق اليوم أحلام الأمس، وأحلام اليوم حقائق الغد، ولا تعاب الطريقة المثلى إذا هجرها الناس، وهذه هي الطريقة للوحدة «وكل من سار على الدرب وصل»[3].

الأذان:

وتستمع إلى الأذان، وهو الصوت العالي الذي تنطلق به حناجر المؤذنين في الصباح والمساء وعشيًّا وعند الظهيرة ومع الغروب: «الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله،

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق»، (٢١/ ٤٠٧)، وقد ضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة»، (٢/ ٣٢٥).

(٢) طرحت فكرة الاسبرانتو عام ١٨٨٧م مع اللغوي والفيزيائي البولوني «لوديفيك زامنهوف»، في منطقة «بياليستوك» على الحدود البولونية الروسية وحاول «زامنهوف» أن يجعلها لغة عالمية هدفها أن تصبح اللغة الثانية للإنسان بغية تسهيل الاتصال الدولي وخلق حوار أفضل بين مختلف الشعوب.

(٣) مقتبس من قول ابن الوردي من الرمل:

لا تقلْ قدْ ذهبَتْ أربابُهُ ... كلُّ مَنْ سارَ على الدربِ وصلْ

أشهد أن محمدًا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله»، يكررها المؤذن أعدادها المعروفة، أو هو يقول: «حي على خير العمل» كما في بعض الروايات[1]، فهل ترى في هذا النداء دعوة إلى عصبية جنسية، أو هتافًا بنصرة طائفية، لا شيء إلا تمجيد الله، والحث على الخير والفلاح والطاعة والصلاة، والإرشاد إلى الأسوة الحسنة في محمد رسول الله.

الحقوق والواجبات ومظاهر العبادات والمساواة التامة:

هي شعار الإسلام في الحقوق والواجبات ومظاهر العبادات. فالجنس الإنساني مكرم كله، مفضل على كثير من المخلوقات، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

والناس جميعًا مخاطبون بهذه الدعوة الإسلامية، وكثيرًا ما يستفتح الخطاب في القرآن الكريم بـ«يا أيها الناس» إشارة إلى عموم هذه الرسالة وتسويتها بين الناس في الحقوق والواجبات.

والحقوق الروحية -فضلاً عن الحقوق المدنية والسياسية والفردية والاجتماعية والاقتصادية- مقررة للجميع على السواء، فما من شعب إلا بعث إليه رسول، ﴿وَإِن مِّنْ

---

(١) جاء هذا عن عبد الله بن عمر فيما رواه عنه البيهقي في «السنن الكبرى»، (١/ ٤٢٤)، كما روى البيهقي ذلك أيضًا عن علي بن الحسين في «السنن الكبرى»، (١/ ٤٢٥)، وقد قال البيهقي عقب إخراج هذه الآثار: (وهذه اللفظة لم تثبت عن النبي ﷺ فيما علّم بلالا وأبا محذورة ونحن نكره الزيادة فيه وبالله التوفيق)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الروافض زادوا في الأذان شعارًا لم يكن يُعرف على عهد النبي ﷺ، وهي: حي على خير العمل، وغاية ما يُنقل -إنْ صح النقلُ- أن بعض الصحابة كابن عمر كان يقول ذلك أحيانًا على سبيل التوكيد كما كان بعضهم يقول بين النداءين: حي على الصلاة، حي على الفلاح، وهذا يُسمَّى نداء الأمراء... إلى أن قال: ونحن نعلم بالاضطرار أن الأذان الذي كان يؤذّنه بلال وابن أم مكتوم في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وأبو محذورة بمكة، وسعد القرظي في قباء لم يكن في أذانهم هذا الشعار الرافضي، ولو كان فيه لنقله المسلمون ولم يُهملوه، كما نقلوا ما هو أيسر منه، فلمّا لم يكن في الذين نقلوا الأذان من ذكر هذه الزيادة علم أنها بدعة باطلة، وهؤلاء الأربعة كانوا يؤذّنون بأمر النبي ﷺ، ومنه تعلّموا الأذان، وكانوا يؤذّنون في أفضل المساجد مسجد مكة والمدينة ومسجد قباء، وأذانهم متواتر عند العامة والخاصة» [ابن تيمية: منهاج السنة النبوية، مؤسسة قرطبة، (٦/ ٢٩٤)].

أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

ومظاهر العبادات وطرق أدائها مشتركة بين الجميع، يؤدونها على قدم المساواة، فهم في الصلاة كالبنيان المرصوص، وهم في الحج قلب واحد يفدون من كل فج عميق، وهم في الجهاد صف لا يتخلف عنه إلا أعرج، أو مريض، أو أعمى، أو معذور، وهم في كل معنى من هذه المعاني كأسنان المشط، لا سيد ولا مسود، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقل مثل ذلك في جميع الحقوق والواجبات والفرائض والعبادات التي جاء بها هذا الإسلام.

تقرير معاني الرحمة والحب والإيثار والإحسان:

ولقد دعم الإسلام هذه المعاني النظرية والمراسم العملية ببث أفضل المشاعر الإنسانية في النفوس من حب الخير للناس جميعًا، والترغيب في الإيثار ولو مع الحاجة، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، والإحسان في كل شيء حتى في القتل[١]، ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿إِن اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

وتقرير عواطف الرحمة حتى مع الحيوان، فأبواب الجنة تفتح لرجل سقى كلبًا، وتبتلع الجحيم امرأة لأنها حبست هرة بغير طعام[٢]، كما جاء ذلك وغيره من كثير من مثله في أحاديث النبي محمد ﷺ حتى استغرب أصحابه، وقالوا: وإن لنا في البهائم لأجرًا

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه من حديث شداد بن أوس أنه قال: اثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ، قال: «إن اللهَ كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته».

(٢) أخرج البخاري في «الْمُسَاقَاةِ»، باب: «فَضْلِ سَقْيِ الْمَاءِ»، ح(٢١٩٢) ومواضع أخر، ومسلم في «الْكُسُوفِ»، باب: «مَا عُرِضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ مِنْ أَمْرِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ»، ح(١٥٠٧) ومواضع أخر، منْ طريق عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ. قَالَ: فَقَالَ وَاللهُ أَعْلَمُ: لا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا، وَلا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلا أَنْتِ أَرْسَلْتِيهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ» واللفظ للبخاري.

يا رسول الله؟ قال: «نعم في كل ذات كبد رطبة أجر»[1]. رواه البخاري، ولا شك أن هذه المشاعر هي التي تفيض على صاحبها أفضل معاني الإنسانية، وتوجهه إلى تقدير قيمة الأخوة العالمية.

شيوع هذه الإنسانية عمليًا في المجتمع الإسلامي:

وإن التاريخ ليحدثنا أن المجتمع الإسلامي سعد بتحقيق هذه المعاني في كل عصر من العصور التي ازدهرت فيها دعوة الإسلام، وطبقها المؤمنون فيها تطبيقًا صحيحًا، ففي عهد النبوة كان سلمان الفارسي إلى جانب صهيب الرومي، إلى جوار بلال الحبشي، ومعهم في نسق واحد أبو بكر القرشي، تضمهم جميعًا أخوة الإسلام، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولم تعرف التعصبات الجنسية إلا يوم ضعف شعور المسلمين بسلطان التوجيه الإسلامي الصحيح، واجتالتهم شياطين التقليد، فانحرفوا عن هذا الصراط المستقيم.

عالم اليوم:

ولقد بشر زعماء العالم -إبان محنتهم في الحرب الماضية- بهذه الإنسانية العالمية، وهتفوا بالعالم الواحد السعيد الذي تسوده الطمأنينة والعدالة والحرية والوئام، فهل وصلوا إلى شيء من ذلك؟ أو حاولوا أن يصلوا إليه فيما قرروا من مؤتمرات وعقدوا من اجتماعات؟ وهل استطاعت هيئة الأمم المتحدة أن تسوي في الحقوق بين أبناء الوطن الواحد في إفريقيا الجنوبية؟ أو أن تحمل الأمريكان على ترك التفاضل بالألوان؟ لا شيء من هذا، ولن يكون إلا إذا تطهرت النفوس بماء الوحي العذب الطهور، وسقيت من معين الإيمان، وأخلصت للإسلام دين الأخوة والوحدة والإنسانية والسلام ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ۞ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦-١٠٧].

* * *

(١) سبق تخريجه.

(٣) أصول الإسلام كنظام اجتماعي

السلام وحكمة مشروعية القتال في الإسلام[١]

الإسلام شريعة السلام ودين المرحمة، ما في ذلك شك، لا يخالف في هذا إلا جاهل بأحكامه، أو حاقد على نظامه، أو مكابر لا يقتنع بدليل، ولا يسلم ببرهان.

اسم الإسلام نفسه مشتق من صميم هذه المادة مادة السلام.

والمؤمنون بهذا الدين لم يجدوا لأنفسهم اسمًا أفضل من أن يكونوا المسلمين ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وحقيقة هذا الدين ولبه: الإسلام لرب العالمين ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

وتحية أهل الإسلام فيما بينهم «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، وختام الصلاة عندهم: سلام على اليمين، وسلام على اليسار، وسلام في الأمام إن كانوا يصلون خلف إمام[٢]؛ كأنهم يبدءون أهل الدنيا من كل نواحيها بالسلام، بعد أن فارقوها بخواطرهم لحظات انصرفوا فيها لمناجاة الله الملك العلام.

وقد نزل القرآن الكريم في ليلة كلها سلام، تحف به ملائكة السلام ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ

---

(١) مجلة الشهاب، العدد (٤)، السنة الأولى، ١ربيع الآخر ١٣٦٧هـ- ١١فبراير ١٩٤٨م، ص(٢٧-٣٦).

(٢) ذهب الإمام مالك مخالفا لجمهور العلماء إلى أن الإمام والفذ يسلمان تسليمة واحدة، ويسلم المأموم الذي ليس على يساره أحد تسليمتين إحداهما رد على الإمام، ويسلم المأموم الذي على يساره غيره ثلاث تسليمات، ويقصد بالثالثة الرد على الذي عن يساره. قال ابن حزم: «وتفريق مالك بين سلام المأموم والإمام والمنفرد قول لا برهان له عليه لا من قرآن ولا من سنة صحيحة ولا سقيمة ولا إجماع ولا قول لصاحب ولا قياس». [المحلى، (٤/ ١٣٣)].

فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلاَمٌ هي حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٥].

وأفضل ما يلقى الله به عباده: «تحية السلام» ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وخير ما يستقبل الملائكة به الصالحين من عباد الله في الجنة «السلام» ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، والجنة نفسها اسمها: دار السلام ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥].

والله -تبارك وتعالى- اسمه: «السلام» ﴿هُوَ اللهُ الذي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ﴾ [الحشر: ٢٣].

ولن يتأخر المسلم عن الاستجابة لدعوة السلام ولن يردها أبدًا ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦١-٦٢]، ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤].

وليست في الدنيا شريعة دينية، ولا نظام اجتماعي فرض السلام تدريبًا عمليًا، واعتبره شعيرة من شعائره، وركنًا من أركانه كما فرض الإسلام رياضة النفس على السلام بالإحرام في الحج، فمتى أهل المسلم به، فقد حرم عليه منذ تلك اللحظة أن يقص ظفرًا، أو يحلق شعرًا، أو يقطع نباتًا، أو يعضد شجرًا، أو يقتل حيوانًا، أو يرمي صيدًا، أو يؤذي أحدًا بيد أو لسان حتى لو وجد قاتل أبيه وجهًا لوجهه لما استطاع أن يمسه بشيء ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فهو بهذا الإحرام قد أصبح سلمًا لنفسه، سلمًا لغيره من إنسان أو حيوان أو نبات.

والإسلام دين الرحمة، فهي قرين السلام في تحية المسلمين، ونبي الإسلام إنما أرسله الله رحمة للعالمين، وشعار المسلم الذي يردده قبل كل قول أو عمل «بسم الله الرحمن

الرحيم».

والوصية بين المؤمنين الصبر والمرحمة ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١٧-١٨].

وآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول محمد ﷺ وأعماله وتصرفاته، كلها تدل على سمو منزلة الرحمة بين الأخلاق التي يأمر بها هذا الدين.

لقد فتحت أبواب الجنة، وشملت مغفرة الله تعالى ومنته رجلاً سقى كلبًا يلهث الثرى من العطش، روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلب يلهث الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب فشكر الله تعالى له فغفر له». قالوا: يا رسول الله: وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»[1].

وفتحت أبواب النار لامرأة حبست هرة، وقست عليها، روى البخاري ومسلم أن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض»[2].

ومن قبل أن تنشأ جمعيات الرفق بالحيوان في أوروبا أو غيرها، كان الرفق بالحيوان شعار الدين الإسلامي، ووصية النبي ﷺ لكل مسلم. عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر؛ إنما سخرها الله لكم لتبلغوا إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم»[3] رواه أبو داود.

وعن عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه ﷺ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود في «الْجِهَادِ»، باب: «في الوقوف على الدابة»، ح(٢٢٠٤)، وقد صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، ح(٢٥٦٧).

فرأينا حمرة[(١)] معها فرخان لها فأخذناهما، فجاءت الحمرة تعرِّش[(٢)]، فلما جاء رسول الله ﷺ قال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»، ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال: «من أحرق هذه؟» قلنا: نحن، قال: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار» أخرجه أبو داود أيضًا[(٣)].

وروى ابن عبد الحكم في سيرة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه نهى عن ركض الفرس[(٤)] إلا لحاجة[(٥)]، وأنه كتب إلى صاحب السكك: ألا يحملوا أحدًا بلجام ثقيل، ولا ينخس بمقرعة في أسفلها حديدة، وكتب إلى حيان بمصر: إنه بلغني أن بمصر إبلاً نقالات، يحمل على البعير منها ألف رطل فإذا أتاك كتابي هذا، فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل[(٦)].

وإنما سمي الفسطاط «مصر القديمة» بذلك؛ لأن فساط عمرو بن العاص حين الفتح، اتخذت من أعلاه حمامة عشًا لها، فلم يشأ عمرو أن يهيجها بتقويضه، فتركه، وتتابع العمران من حوله فكانت مدينة الفسطاط[(٧)].

---

(١) الحُمَّرَةُ والحُمَرَةُ: طائر من العصافير. [لسان العرب، مادة (حمر)].

(٢) التعريش: أن ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها [لسان العرب، مادة (عرش)].

(٣) أخرجه أبو داود في «الْجِهَادِ»، باب: «فِي كَرَاهِيَةِ حَرْقِ الْعَدُوِّ بِالنَّارِ»، ح(٢٣٠٠)، وموضع آخر، وقد صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، ح(٢٦٧٥).

(٤) ركض الفرس، أي: ضرب الراكب بطن الفرس برجليه ليستحثه على الجري، [لسان العرب، مادة (ركض)].

(٥) انظر: أبو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق: أحمد عبيد، مكتبة وهبة، ص(٤٨).

(٦) انظر: السابق، ص (١٣٦).

(٧) الفسطاط يقال: فسطاط بضم أوله وفِسطاط بكسره وفُساط بضم أوله، والجمع فساطيط. والفُسطاط بيت من شعَر. وقيل: ضرْب من الأبنية. وقيل: إنه بيت من أدَم أو شعْر كان لعمرو بن العاص. كما ذكر ابن الوردي أن عمرو بن العاص أمر بترك الفسطاط على حاله لئلا يحصل التشويش للحمامة بهدم عشها وكسر بيضها، وألا يهدم حتى تفقس عن فراخها وتطيرهم، وقال: «والله ما كنا لنسيء لمن لجأ بدارنا واطمأن إلى جانبنا». [ياقوت الحموي: معجم البلدان، (٤/ ٢٦٣)- ولسان العرب، مادة (فسط)- وابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، (١/ ١٥)].

وما ذلك كله إلا أثرًا من آثار الرحمة التي يشيعها الإسلام في نفوس المؤمنين، فهو ولا شك دين المرحمة، وهو ولا شك دين السلام.

وإذا كان الإسلام دين السلام ودين المرحمة، فما موقفه من فكرة الحرب والقتال والجهاد؟ وهل انتشر بالسيف كما يقول عنه كثير من خصومه الذين لم يعرفوه أو تعمدوا أن يتجاهلوه؟ وهل انفرد دون غيره من الأديان بمشروعية القتال؟ هذه هي رءوس الموضوعات التي سنعالجها مختصرة في هذه الكلمات التالية:

الإسلام والحرب:

أ - الحرب ضرورة اجتماعية: القاعدة الأساسية التي وضعها الإسلام للحياة، هي -ولا شك- الطمأنينة والسلام والاستقرار، ولكن الإسلام مع هذا دين يواجه الواقع ولا يفر منه، وما دامت في الدنيا نفوس لها نوازع وأهواء ومطامع، وما دام هناك هذا الناموس الذي يطبق على الأفراد والجماعات على السواء، ناموس تنازع البقاء، فلابد إذن من الاشتباك والحرب، وحين تكون الحرب لردع المعتدي، وكف الظالم، ونصرة الحق، والانتصاف للمظلوم تكون فضيلة من الفضائل، وتنتج الخير والبركة والسمو للناس، وحين تكون تحيزًا وفسادًا في الأرض، واعتداء على الضعفاء تكون رذيلة اجتماعية، وتنتج السوء والشر والفساد في الناس.

ومن هنا جاء الإسلام يقرر هذا الواقع ويصوره، فيقول القرآن الكريم: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرض وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، كما يقول في آية أخرى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِن مكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١]، وبذلك كانت أولى نظرات الإسلام إلى الحرب أنها ضرورة اجتماعية، أو شر لابد منه، إلا لما يرجى من ورائه من خير، على حد قول الشاعر العربي:

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعًا وإن تلقه بالشر ينحسم[(١)]

والناس إذا ظلموا البرهان واعتسفوا ... فالحرب أجدى على الدنيا من السلم[(٢)]

ب - أغراض الحرب في الإسلام: وفي الوقت الذي يقرر الإسلام فيه هذا الواقع، يحرم الحرب ويسمو بها ولا يدعو إليها أو يشجع عليها إلا لهذه الأغراض الأساسية السامية العالية الحقة:

١- رد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والوطن والدين، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وكانت أول آية من آيات القتال نزلت وفيها الإذن به قول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]، وفي الآية الثالثة: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [النساء: ٧٥]... إلخ.

وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: أرأيت إن عدي على مالي؟ قال: «فانْشُدْ بالله». قال: فإن أبوا عليَّ؟ قال: «انْشُدْ بالله» قال: فإن أبوا عليَّ؟ قال: «انشد بالله» قال: فإن أبوا عليَّ؟ قال: «قاتل فإن قُتلتَ ففي الجنة، وإن قتلت ففي النار»[(٣)].

وروى أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن سعد بن زيد ﷺ قال: سمعت

---

(١) البيت لأحمد شوقي، وهو من بحر البسيط.

(٢) البيت من بحر البسيط للشاعر محمد بن عبد المطلب بن واصل [١٢٨٨-١٣٥٠هـ = ١٨٧١-١٩٣١م]. من أسرة أبي الخير، من جهينة. شاعر مصري، من الأدباء الخطباء. ولد في باصونة (من قرى جرجا بمصر) وتعلم في الأزهر بالقاهرة، وتخرج مدرسًا، وشارك في الحركة الوطنية، بشعره ومقالاته وخطبه.وتوفي بالقاهرة. له (ديوان شعر). وله: (تاريخ أدب اللغة العربية) ثلاثة أجزاء، و(كتاب الجولتين في آداب الدولتين) الأموية والعباسية، و(إعجاز القرآن) وروايتا (الزباء) و(ليلى العفيفة) كلها لا تزال محفوظة. [الموسوعة الشعرية].

(٣) أخرجه النسائي في «تَحْرِيمِ الدَّمِ»، باب: «مَا يَفْعَلُ مَنْ تَعَرَّضَ لِمَالِهِ»، ح(٤٠١٤، ٤٠١٥)، وقد صححه الألباني في «صحيح سنن النسائي»، ح(٤٠٨٢).

رسول الله ﷺ يقول: «مَن قتل دون ماله فهو شهيد، ومَن قتل دون دمه فهو شهيد، ومَن قتل دون دينه فهو شهيد، ومَن قتل دون أهله فهو شهيد»[١].

وروى البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أريد ماله بغير حق فقاتل فقتل فهو شهيد»[٢].

٢- تأمين حرية الدين والاعتقاد للمؤمنين، الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ويقول في آية أخرى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انْتَهَوا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

٣- حماية الدعوة حتى تبلغ إلى الناس جميعًا ويتحدد موقفهم منها تحديدًا واضحًا؛ ذلك أن الإسلام رسالة اجتماعية إصلاحية شاملة تنطوي على أفضل مبادئ الحق والخير والعدل، وتتوجه[٣] إلى الناس جميعًا، كما قال الله تبارك وتعالى لنبي الإسلام محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، فلابد أن تزول من طريقها كل عقبة تمنع من إبلاغها، ولابد أن يعرف موقف كل فرد وكل أمة بعد هذا البلاغ، وعلى ضوء هذا التحديد تكون معاملة الإسلام وأهله للناس، فالمؤمنون إخوانهم والمعاهدون لهم عهدهم، وأهل الذمة يوفى لهم بذمتهم، والأعداء المحاربون ومن تخشى خيانتهم ينبذ إليهم، فإن عدلوا عن خصومتهم فبها، وإلا حوربوا جزاء اعتدائهم حتى لا يكونوا عقبة

---

(١) أخرجه أبو داود في «السُّنَّةِ»، باب: «فِي قِتَالِ اللُّصُوصِ»، ح(٤١٤٢)، والترمذي في «الدِّيَاتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، باب: «مَا جَاءَ فِيمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»، ح(١٣٤١)، والنسائي في «تَحْرِيمِ الدَّمِ»، باب: «مَنْ قَاتَلَ دُونَ دِينِهِ»، ح(٤٠٢٧)، وأحمد في «مُسْنَد سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ ﷺ»، ح(١٥٦٥)، وقد صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، ح(٤٧٧٢).

(٢) أخرجه أبو داود في «السُّنَّةِ»، باب: «فِي قِتَالِ اللُّصُوصِ»، ح(٤١٤١)، والترمذي في «الدِّيَاتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، باب: «مَا جَاءَ فِيمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»، ح(١٣٤٠)، والنسائي في «تَحْرِيمِ الدَّمِ»، باب: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ»، ح(٤٠٢٠)، وأحمد في «مُسْنَد عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا»، ح(٦٥٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، ح(٤٧٧١).

(٣) في الأصل: «توجه».

في طريق دعوة الحق، أو مصدر تهديد وخيانة لأهلها، لا إكراهًا لهم على قبول الدعوة، ولا محاولة لكسب إيمانهم بالقوة، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، والآيات والأحاديث ناطقة بذلك، مفصلة إياه في مثل قول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»[1].

٤- تأديب ناكثي العهد من المعاهدين أو الفئة الباغية على جماعة المؤمنين التي تتمرد على أمر الله، وتأبى حكم العدل والإصلاح، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٢-١٣]، ويقول: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

---

(١) أخرجه البخاري في «الإيمان»، باب: «﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾»، ح(٢٤) ومواضع أخر، ومسلم في «الإيمان»، باب: «الأَمْرِ بِقِتَالِ النَّاسِ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ...»، ح(٣٣) ومواضع أخر.

٥- إغاثة المظلومين من المؤمنين أينما كانوا، والانتصار لهم من الظالمين، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

ج - تحريم الحرب لغير ذلك من الأغراض: فكل ما سوى هذه الأغراض الإنسانية الإصلاحية الحقة من المقاصد المادية، أو الشخصية، أو النفعية فإن الإسلام لا يجيز الحرب من أجلها بحال من الأحوال، وذلك واضح كل الوضوح من إضافة الإسلام القتال أو الجهاد دائمًا إلى سبيل الله، فلا ترد واحدة من هاتين الكلمتين في بحث من البحوث الإسلامية إلا مقرونة بهذا السبيل، على أن القرآن الكريم قد صرح بتحريم كل قتال لغير هذه الأغراض المشروعة، وأكدت هذا التحريم أحاديث النبي محمد ﷺ، وسجل التاريخ ذلك لأصحابه الذين لم يريدوا بقتالهم شيئًا أبدًا إلا وجه الله، وتحقيق المقاصد المتقدمة كلها أو بعضها، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤]، ويقول: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨].

وأخرج الخمسة عن أبي موسى ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

وأخرج أبو داود عن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد

---

(١) أخرجه البخاري في «التَّوْحِيدِ»، باب: «قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾»، ح(٦٩٠٤)، ومسلم في «الإِمَارَةِ»، باب: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هي الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ»، ح(٣٥٢٥).

في سبيل الله، وهو يبتغي عرضًا[١] من الدنيا. فقال: «لا أجر له». فأعاد عليه ثلاثًا كل ذلك يقول: «لا أجر له»[٢].

ولقد تأثر أصحاب النبي ﷺ -حتى الأعراب منهم- بهذا السمو في الغرض من القتال، حتى روى النسائي عن شداد بن الهاد رضي الله عنه أن رجلاً من الأعراب جاء فآمن بالنبي ﷺ ثم قال: أهاجر معك؟ فأوصى النبي ﷺ به بعض أصحابه، فكانت غزاة غنم النبي ﷺ فيها شيئًا فقسم وقسم له، فقال: ما هذا؟! فقال: «قسمته لك». قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى هاهنا -وأشار بيده إلى حلقه- بسهم فأموت فأدخل الجنة، فقال: «إن تصدق الله يصدقك»، فلبثوا قليلاً، ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به النبي ﷺ محمولاً قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «أهو هو؟»، قالوا: نعم، قال: «صدق الله فصدقه»، ثم كفن في جبة النبي ﷺ، ثم قدمه فصلى عليه، فكان مما ظهر من صلاته: «اللهم إن هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك فقتل شهيدًا، وأنا شهيد على ذلك»[٣].

وصحف التاريخ فياضة بمثل هذه الزهادة منهم في عرض الدنيا وغنائم الفتح، وأن غرضهم من الجهاد لم يكن شيئًا إلا إعلاء كلمة الله، وحماية دعوته في الناس.

د - **إيثار السلم كلما أمكن ذلك والتشجيع عليها:** فالمسلم لا يحارب إلا مكرهًا على القتال، بعد استنفاد وسائل المسالمة جميعًا، وحين تلوح بارقة أمل في السلم يوجب عليه الإسلام أن ينتهزها، وألا يدع الفرصة تفلت من يده، وعليه أن يعمل على إطفاء نار الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

---

(١) في سنن أبي داود: «عرضًا من عرض الدنيا».

(٢) أخرجه أبو داود في «الْجِهَادِ»، باب: «فِي مَنْ يَغْزُو وَيَلْتَمِسُ الدُّنْيَا»، ح(٢١٥٥)، وأحمد في «مُسْنَد أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه»، ح(٧٥٥٩، ٨٤٣٨)، والحاكم في «المستدرك»، ح(٢٣٩٣)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقد حسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، ح(٢٥١٦).

(٣) أخرجه النسائي في «الْجَنَائِزِ»، باب: «الصَّلاة عَلَى الشُّهَدَاءِ»، ح(١٩٢٧)، وقد صححه الألباني في «صحيح سنن النسائي»، ح(١٩٥٣).

وروى أبو داود عن الحارث بن مسلم عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فلما بلغنا المغار -أي: مكان الغارة- استحثثت فرسي فسبقت أصحابي فتلقاني أهل الحي بالرنين، فقلت لهم: قولوا: لا إله إلا الله تحرزوا، فقالوها، فلامني أصحابي وقالوا: حرمتنا الغنيمة، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبروه بالذي صنعت، فدعاني فحسن لي ما صنعت، ثم قال لي: «أما إن الله قد كتب لك لكل إنسان منهم كذا وكذا من الأجر»، وقال: «أما إني سأكتب لك بالوصاة بعدي» ففعل وختم عليه ودفعه إليّ[1].

هـ - الرحمة في الحرب ومراعاة أعلى آدابها الإنسانية: فإذا كانت الحرب ولابد، فإن المسلم يضرب فيها أروع المثل على الرحمة والتفضل ومراعاة أعلى آدابها الإنسانية، فإذا رجحت كفة المسلمين على أعدائهم، وظهرت الغلبة لهم، فإن عليهم بحكم القرآن الكريم أن يكفوا عن القتل، ويكتفوا بالأسر ليمنوا على الأسير بعد ذلك بحريته، أو يفتدوا به مثله من أساراهم[2]، فيحسنوا إلى إنسانين من عباد الله، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

وأما الرق فسيأتي تفصيل الكلام عنه في بحث آخر، وحسبنا الآن أن نقول: إنه معنى من معاني الرحمة التي شرعها الإسلام في الحرب، فأبدل حكم الإعدام، وهو القتل بحكم السجن المؤبد، وهو الرق بعد الأسر، ثم جعل لهذا السجن بعد ذلك عدة منافذ، يستطيع الأسير فيها أن يسترد حريته بكل سهولة، ولا يبيح الإسلام الرق بحال من الأحوال إلا في هذا الموقف الذي تتجسم فيه معاني الرحمة والإحسان، والمسلم في قتاله لا يغدر، ولا يفجر، ولا يفسد، ولا يتلف، ولا ينهب مالاً، ولا يقتل امرأة ولا طفلاً ولا شيخًا كبيرًا، ولا يتبع مدبرًا، ولا يجهز على جريح، ولا يمثل بقتيل، ولا يسيء إلى أسير، ولا يتعرض لمسالم أو رجل دين، ولا يقصد أن يضرب وجهًا، أو يقتل صبيًا.

أخرج أبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعف الناس قِتلةً أهل

(١) سبق تخريجه.

(٢) أسارى: جمع أسير، وهو جمع الجمع. يقال: أسير وأسرى، ثم أسارى. [لسان العرب، مادة (أسر)].

الإيمان»[(١)].

وأخرج البخاري عن عبد الله بن يزيد الأنصاري قال: نهى رسول الله ﷺ عن النهبى والمثلة[(٢)].

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه»[(٣)].

وأخرج أبو داود عن أبي يعلى قال: غزونا مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فأتي بأربعة أعلاج من العدو، فأمر بهم فقتلوا صبرًا[(٤)] بالنبل، فبلغ ذلك أبا أيوب الأنصاري ﷺ فقال: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن قتل الصبر، فوالذي نفسي بيده لو كانت دجاجة ما صبرتها فبلغ ذلك عبد الرحمن فأعتق أربع رقاب[(٥)].

وأخرج الستة إلا النسائي عن ابن عمر قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان[(٦)].

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي عن بريدة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا»[(٧)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه، والنَّهْبُ: الغنيمة. والنُّهبى: أَخْذُ مال مُسْلِمٍ قَهْرًا. والمُثْلة بالضم: التنكيل. والمَثُلة بفتح الميم وضم الثاء: العُقُوبة، والجمع المَثُلات. [لسانَ العربِ، مادة (نهب)، ومختار الصحاح، (مثل)].

(٣) سبق تخريجه.

(٤) قُتِلَ فلان صَبْرًا، إذا حُبِسَ على القتل حتى يُقْتَلَ. [الصحاح، مادة (صبر)].

(٥) أخرجه أبو داود في «الْجِهَادِ»، باب: «فِي قَتْلِ الأَسِيرِ بِالنَّبْلِ»، ح(٢٣١٢)، وقد ضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود»، ح(٢٦٨٧).

(٦) أخرجه البخاري في «الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ»، باب: «قَتْلِ الصِّبْيَانِ فِي الْحَرْبِ»، ح(٢٧٩١)- ومسلم في «الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ»، باب: «تَحْرِيمِ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فِي الْحَرْبِ»، ح(٣٢٧٩) وموضع آخر.

(٧) سبق تخريجه.

وكانت هذه الوصية شعار الخلفاء والأمراء، يوصون بها دائمًا قواد الجيوش حين يبعثون بهم إلى القتال. أوصى أبو بكر أسامة ﷺ فقال: «لا تخونوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا للأكل، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقًا» ثم قال: اندفعوا باسم الله[١].

فهل رأت الساحات والميادين أرق من هذه الأفئدة، وألين من هذه القلوب؟!

* * *

(١) انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق، (٢/ ٥٠).

(٤) أصول الإسلام كنظام اجتماعي

(٢) السلام وحكمة مشروعية القتال في الإسلام[١]

و - الوفاء بالعهود والمواثيق والشروط: فإذا كانت هدنة وموثق وعهد وصلح وشرط، فالإسلام يشدد في ملاحظة ذلك، والمحافظة على صورته ومعناه أدق المحافظة، ويتوعد المخالفين من أبنائه إن غدروا ولم يفوا بأشد الوعيد، والآيات والأحاديث في ذلك واضحة محكمة، لا تدع مجالاً لإباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة، وعده قصاصة ورق عند إمكان الخروج عليه بالحيلة، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هي أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩١-٩٢]، ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

وأخرج أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء الصحابة عن آبائهم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَن ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسه، فأنا حجيجه يوم القيامة»[٢].

قال أهل سمرقند لعاملهم سليمان بن أبي السري: إن قتيبة غدر بنا وظلمنا، وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف، فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين -وهو يومئذ عمر بن عبد العزيز- يشكون ظلامتنا، فإن كان لنا حق أعطيناه، فإن بنا إلى ذلك حاجة، فأذن لهم، فوجهوا منهم قومًا إلى عمر فلما علم عمر ظلامتهم، كتب إلى سليمان يقول له: إن أهل سمرقند قد شكوا إلي ظلمًا أصابهم، وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى

---

(١) مجلة الشهاب، العدد (٥)، السنة الأولى، ١جمادى الأولى ١٣٦٧هـ- ١٢مارس ١٩٤٨م، ص(٢٣-٣٢).

(٢) أخرجه أبو داود في «الْخَرَاجِ وَالإِمَارَةِ وَالْفَيءِ»، باب: «فِي تَعْشِيرِ أَهْلِ الذِّمَّةِ إِذَا اخْتَلَفُوا بِالتِّجَارَاتِ»، ح(٢٦٥٤)، وقد صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، ح(٣٠٥٢).

أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابي هذا، فأجلس لهم القاضي، فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة، فأجلس لهم سليمان «جميع بن حاضر» القاضي، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء، فيكون صلحًا جديدًا، أو ظفرًا عنوة، فقال أهل السغد[١]: بل نرضى بما كان، ولا نجدد حربًا؛ لأن أهل الرأي منهم قالوا: قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم، فإن عدنا إلى الحرب لا ندري لمن يكون الظفر. وإن لم يكن لنا نكون قد اجتلبنا عداوة في المنازعة، فتركوا الأمر على ما كان عليه، ورضوا ولم ينازعوا[٢]. وهذا منتهى المبالغة في تقصي العدل والوفاء بالعهد.

ز - الجزية: ولسنا نحب أن تمر هذه الكلمات عن موقف الإسلام من الحرب، قبل أن نتناول أمر الجزية بكلمة توضح معناها والمقصود منها، وتكشف عن حكمتها، وكيف أنها أبلغ معاني الإنصاف والمرحمة التي جاء بها الإسلام؟ فنقول:

الجزية: ضريبة كالخراج تجبى على الأشخاص لا على الأرض، والكلمة عربية مشتقة من الجزاء؛ لأنها تدفع نظير شيء هو: الحماية والمنعة، أو الإعفاء من ضريبة الدم والجندية، وذهب بعض العلماء إلى أنها فارسية معربة وأصلها «كزيت» ومعناها: الخراج الذي يستعان به على الحرب، وقال: إن كسرى هو أول من وضع الجزية، وعلى هذا فهي: نظام في الضريبة نقله الإسلام عن الفارسية ولم يبتكره.

ولقد قرر الإسلام ضريبة الجزية على غير المسلمين في البلاد التي يفتحها نظير قيام الجند الإسلامي بحمايتهم وحراسة أوطانهم والدفاع عنها، في الوقت الذي قرر فيه إعفاءهم من الجندية، فهي «بدل نقدي» لضريبة الدم، وإنما سلك الإسلام هذه السبيل ولجأ إليها مع غير المسلمين، من باب التخفيف عليهم، والرحمة بهم، وعدم الإحراج لهم، حتى لا يلزمهم أن يقاتلوا في صفوف المسلمين، فيتهم بأنه إنما يريد لهم الموت والاستئصال والفناء، والتعريض لمخاطر الحرب والقتال، فهي في الحقيقة «امتياز في صورة

(١) في الأصل: «السند»، والسُّغدُ: بضم أوله وسكون ثانيه وآخره دال مهملة: ناحية كثيرة المياه، نضرة الأشجار، متجاوبة الأطيار، مُؤنقة الرياض والأزهار، ملتفة الأغصان، خضرة الجنان، تمتد مسيرة خمسة أيام لا تقع الشمس على كثير من أراضيها ولا تبين القرى من خلال أشجارها، وفيها قرى كثيرة بين بُخارى وسمرقند. [معجم البلدان، (٢/ ٤٥٦)].

(٢) تاريخ الطبري، (٤/ ٦٩).

ضريبة»، وفي الوقت نفسه احتياط لتنقية صفوف المجاهدين من غير ذوي العقيدة الصحيحة، والحماسة المؤمنة البصيرة، ومقتضى هذا: أن غير المسلمين -من أبناء البلاد التي تدخل تحت حكم الإسلام- إذا دخلوا في الجند، أو تكفلوا أمر الدفاع أسقط الإمام عنهم الجزية، وقد جرى العمل على هذا فعلاً في كثير من البلاد التي فتحها خلفاء الإسلام، وسجل ذلك قواد الجيوش الإسلامية في كتب ومعاهدات لا زالت مقروءة في كتب التاريخ الإسلامي ومنها:

١- كتاب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا حين دخل الفرات، وأوغل فيه وهذا نصه: «هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه: إني عاهدتكم على الجزية والمنعة فلك الذمة والمنعة وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا». كتب سنة اثنتي عشرة في صفر[1].

٢- وفي حمص، رد الأمراء بأمر أبي عبيدة ما كانوا أخذوه من الجزية من أهلها وما إليها، حين جلوا عنها ليتجمعوا لقتال الروم، وقالوا لأهل البلاد: إنما رددنا عليكم أموالكم؛ لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك الآن، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم.

فكان جواب أهل هذه البلاد: ردكم الله علينا ونصركم عليهم، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئًا وأخذوا كل شيء. لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم. وكذلك فعل أبو عبيدة نفسه مع دمشق حين كان يتجهز لليرموك[2].

٣- كتاب العهد الذي كتبه سويد بن مقرن أحد قواد عمر رضي الله عنهما لرزبان وأهل دهستان[3] وسائر أهل جرجان ونصه: «هذا كتاب سويد بن مقرن لرزبان صول ابن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان، إن لكم الذمة وعلينا المنعة، على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم[4]، ومن استعنا به منكم فله

---

(١) السابق، (٢/ ٣١٩).

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، (١/ ١٤٣).

(٣) دِهِستان: بلد مشهور قرب خوارزم وجرجان. [انظر: معجم البلدان، (٢/ ٢٥٦)].

(٤) في الأصل: «حال».

جزاؤه (أي: جزيته) في معونته عوضًا من جزائه، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، ولا يغير شيء من ذلك». شهد سواد بن قطبة وهند بن عمر وسماك بن مخرمة وعتيبة بن النهاس وكتب في سنة ١٨ هـ- الطبري[١].

٤- كتاب عتبة بن فرقد أحد عمال عمر بن الخطاب وهذا نصه «هذا ما أعطى عتبة ابن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها[٢] وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم، ومن حشر منهم في سنة -أي: جند منهم في سنة- وضع عنه جزاء تلك السنة، ومن أقام فله مثل من أقام من ذلك- الطبري[٣].

٥- العهد الذي كان بين سراقة عامل عمر وبين شهر براز، وقد كتب به سراقة إلى عمر فأجازه واستحسنه وهذا نصه: هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهر براز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وملتهم ألا يضاروا ولا ينقصوا[٤]، وعلى أرمينية والأبواب الطراء منهم -أي: الغرباء- والتناء -أي: المقيمين- ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحًا، على أن يوضع الجزاء -أي: الجزية- عمن أجاب إلى ذلك، ومن استغنى عنه منهم وقعد، فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء، فإن حشروا -أي: جندوا- وضع ذلك عنهم. شهد عبد الرحمن بن ربيعة وسلمان بن ربيعة وبكير بن عبد الله، وكتب مرضي بن مقرن وشهد- الطبري[٥].

٦- وأخيرًا أمر الجراجمة فيما ذكره البلاذري، فقال: حدثني مشايخ من أهل أنطاكية أن الجراجمة من مدينة على جبل لكام[٦] عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقا يقال لها: الجرجومة، وأن أمرهم كان في استيلاء الروم على الشام وأنطاكية إلى بطريك[٧] أنطاكية

---

(١) تاريخ الطبري، (٢/ ٥٣٨).

(٢) في الأصل: «شعارها».

(٣) السابق، (٢/ ٥٣٩).

(٤) في «تاريخ الطبري»: «ينتقصوا».

(٥) السابق، (٢/ ٥٤٠).

(٦) في «فتوح البلدان»: «اللكام».

(٧) في «فتوح البلدان»: «بطريق».

وواليها، فلما قدم أبو عبيدة إلى أنطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم، إذ خافوا على أنفسهم فلم يتنبه المسلمون لهم ولم ينبهوا عليهم، ثم إن أهل أنطاكية نقضوا وغدروا فوجه إليهم أبو عبيدة من فتحها ثانية، وولاها بعد فتحها حبيب بن مسلمة الفهري، فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها، ولكنهم بدروا بطلب الأمان والصلح، فصالحوه على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعيونًا ومسالح في جبل لكام[١]، وألا يؤخذوا بالجزية، ودخل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الأنباط وغيرهم وأهل القرى في هذا الصلح، ولم يؤخذ الجراجمة بالجزية قط، حتى إن بعض العمال في عهد الواثق العباسي ألزمهم جزية رءوسهم فرفعوا ذلك إليه فأمر بإسقاطها عنهم[٢].

وبهذا البيان يندفع كل ما يوجه إلى «ضريبة الجزية» من نقد أو اتهام، وتظهر حكمة الإسلام ورحمة الله بعباده في تشريعاته واضحة لا غموض فيها ولا إبهام.

ح - الحث على دوام الاستعداد، وكمال الشجاعة إذا تحتم الجهاد:

فإذا كان ولابد من الحرب لغرض من الأغراض الإنسانية المشروعة التي سبقت الإشارة إليها، فإن الإسلام يصرح بأن الجهاد والقتال فريضة على كل مسلم، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وهو حينئذ أفضل القربات إلى الله تبارك وتعالى، والموت في ساحاته «شهادة» توجب الإكبار في الدنيا والجنة في الآخرة، ولا يعفى منه إلا العاجزون عنه، وعليهم أن يجهزوا غيرهم إن كانوا قادرين على ذلك، وأن يخلفوهم في أهليهم بخير ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وأحاديث النبي محمد ﷺ في ذلك أكثر من أن تحصر، وقد باشر هو بنفسه القتال في

(١) في «فتوح البلدان»: «اللكام».
(٢) فتوح البلدان، (١/ ١٦٣).

أكثر من خمس وعشرين معركة[١] كان فيها مثال الشجاعة والنجدة والبأس، حتى قال فارس أصحابه علي -كرَّم الله وجه: «كنا إذا اشتد البأس، وحمي الوطيس، واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فيكون أدنانا إلى العدو»[٢].

وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم يفعلون. ولا يستطيع أحد أن يرى في هذه الأحكام والأخلاق لمثل ما شرعت له من مقاصد وأغراض إلا أكرم معاني الفضيلة الإنسانية، والجود بالنفس أقصى غاية الجود[٣]، وأجمل ما يكون الحق إذا استعان بالقوة، وأفضل ما تكون القوة إذا استخدمت للحق بالحق.

ب -هل انتشرت دعوة الإسلام بالسيف؟

أولع خصوم الإسلام في كل عصر -وبخاصة في هذا العصر- بتوجيه هذه التهمة إلى الإسلام، والإسلام منها براء، فهو لم يكره الناس على الإيمان بالسيف، ولم يضعه على رقابهم ليشهدوا بشهادته، أو يدينوا بعقيدته، فهذه التهمة باطلة من وجوه عدة:

١ - باطلة: بشهادة التاريخ الذي يحدثنا بأن النبي محمدًا ﷺ مكث بمكة المكرمة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى دينه، كان فيها مضطهدًا أشد الاضطهاد حتى من أهله وعشيرته وأقرب الناس إليه، ومع ذلك فقد احتمل وصبر وصابر، وكان يمر على النفر من أصحابه، والأسرة من المؤمنين به يعذبون أشد العذاب، فلا يزيد على أن يقول لهم:

---

(١) وأما ما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما (١٢/ ٣٤٢، ٩/ ٣١٧) بسنديهما عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ كُنْتُ إِلَى جَنْبِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ فَقِيلَ لَهُ: كَمْ غَزَا النَّبِي ﷺ مِنْ غَزْوَةٍ؟ قَالَ: تِسْعَ عَشْرَةَ. قِيلَ: كَمْ غَزَوْتَ أَنْتَ مَعَهُ؟ قَالَ: سَبْعَ عَشْرَةَ. قُلْتُ: فَأَيُّهُمْ كَانَتْ أَوَّلَ؟ قَالَ: الْعُسَيْرَةُ أَوْ الْعُشَيْرُ. فَذَكَرْتُ لِقَتَادَةَ فَقَالَ: الْعُشَيْرِ. فقد قال الإمام النووي: معناه أنه غزا تسع عشرة وأنا معه، أو أعلم له تسع عشرة غزوة، وكانت غزواته ﷺ خمسًا وعشرين، وقيل: سبعًا وعشرين، وقيل غير ذلك، وهو مشهور في كتب المغازي وغيرها. [شرح النووي على مسلم، (٤/ ٣٥٥)].

(٢) انظر: القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، (١/ ١١٦).

(٣) مقتبس من قول أبي الشيص الخزاعي من البسيط:

أَمسى يَقيكَ بِنَفسٍ قَد حَباكَ بِها ... والجودُ بالنَّفسِ أَقصى غايَةِ الجودِ

«اصبروا آل ياسر إن موعدكم الجنة»[(١)]، ومع هذا فقد آمن بالإسلام السابقون الأولون الثابتون من أبنائه وأبرهم به في عهد النبي ﷺ وبعد وفاته أعمق الإيمان، وآمن الأنصار -وهم أهل المدينة- بالنبي ﷺ بمجرد أن تحدث معهم في الموسم، وتوافدوا إليه يبايعونه في كل عام حتى كانت بيعة العقبة، وعلى أثرها كانت الهجرة، وكل ذلك ورسول الله ﷺ لا يقابل أهل العدوان بسيف ولا عصا، ولكن يصبر ويحتسب، ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[(٢)]، وما جاء الإذن بالقتال إلا في السنة الثانية من الهجرة بعد أن كثر خصوم الإسلام من المشركين واليهود وتألبوا عليه وأخذوا يتحرشون به ويكيدون له، فأنزل الله هذه الآيات المحكمة، وفيها أروع صور الإذن بالقتال لأنبل المقاصد والأغراض ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

والتاريخ يحدثنا عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم فتحوا البلاد بأخلاقهم وحسن معاملتهم قبل أن يفتحوها بسيوفهم وعدتهم وعددهم، فلا يتصور أن عددًا قليلاً من هؤلاء العرب يثل[(٣)] عرش كسرى، ويدك ملك قيصر، ويرث هذه الإمبراطوريات الضخمة في هذا العدد من السنين بمجرد القوة، ولا يعقل أن ثمانية آلاف جندي يفتحون إقليمًا شاسعًا كمصر وينشرون فيها دينهم ولغتهم وآدابهم وثقافتهم وعقيدتهم بالإكراه والجبروت، ولكن بحسن الأحدوثة، وجميل العمل. وها نحن قد رأينا فيما تقدم كيف أن كثيرًا من أهل هذه البلاد كانوا يتمنون عودة العرب إليهم بعد جلائهم عنهم، فكيف يقال بعد هذا: إن الإسلام قام على السيف وانتشر بالسيف؟!

---

(١) أخرجه الحاكم بنحوه في «المستدرك»، (٣/ ٤٣٨)، والطبراني في «الأوسط»، (٢/ ١٤١) من حديث جابر بن عبد الله، و«الكبير» من حديث عثمان بن عفان، (٢٤/ ٣٠٢)، وقد صححه الألباني في تخريجاته على «فقه السيرة» للغزالي، ص(١٠٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ثُلَّ عَرْشُ فلان ثلاً: هُدِم وزال أمر قَوْمه. وزال قِوام أَمره وأَثَلَّه الله. ويقال للقوم إذا ذهب عِزُّهم: قد ثُلَّ عَرْشُهُم. يقال: ثَلَّ اللهُ عَرْشَهم، أَي: هَدَم مُلْكَهم. [لسان العرب، مادة (ثلل)].

٢ - وباطلة: بآيات القرآن الكريم، التي تقرر حرية العقيدة، وتقول في وضوح وصراحة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، كما تقول: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، كما تقول[١]: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، فهو يلزم المؤمنين إن استجار بهم أحد المشركين أن يبلغوه الدعوة، ويوضحوا له مقاصد الإسلام، ثم يحرسوه حتى يصل إلى مأمنه، ويتركوه ليسلم عن رغبة واقتناع، لا عن خوف ورهبة وإكراه.

٣ - وباطلة: لأن قواعد الإسلام وما جرى عليه العمل به منها تأباها كل الإباء، فأساس الإيمان في الإسلام الفكر والنظر، والاطمئنان القلبي ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] وأساس المؤاخذة في الإسلام بلوغ الدعوة على وجه يدعو إلى النظر، والتقليد في الإيمان ليس أساسًا صحيحًا له فضلاً عن الإكراه عليه، حتى قال بعض العلماء المتأخرين في منظومة فنية[٢]:

إذ كل من قلد في التوحيد ... إيمانه لم يخل من ترديد

وقول المكره في الإسلام مردود عليه، ولا يؤاخذ على عمله، فالدين الذي يعتبر العقل والحرية أساسًا للاعتقاد والمسئولية لا يمكن أن يقال فيه: إنه يقوم على السيف وينتشر به، وإن كان قد شرع الحرب والقتال لما تقدم من الأغراض التي لا يعترض عليها إلا واهم أو مكابر، وعلامة الإيمان الحق الاطمئنان إليه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٨-٢٩].

هل الإسلام وحده هو الذي أوصى بالسيف لحماية الحق؟

وليس الإسلام وحده هو الذي أشار إلى القتال والحرب والجهاد كوسيلة لحماية

---

(١) في الأصل: «يقول».

(٢) هو الشيخ إبراهيم بن اللقاني المالكي المتوفى في حدود سنة أربعين وألف. [انظر: كشف الظنون، (١/ ٦٢٠)].

الحق، بل إن الشرائع السابقة واللاحقة كلها جاءت بذلك.

فأسفار التوراة التي يتداولها اليهود اليوم طافحة بأنباء القتال والجهاد والحرب والتخريب والتدمير والهلاك والسبي، وهي تقرر شريعة القتال والحرب ولكن في أبشع صورها، فقد جاء في سفر التثنية في الإصحاح العشرين منه عدد (١٠) وما بعده ما يأتي نصه: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد ذلك، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربًا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريمًا الحيثين والأموريين والكنعانيين والفيرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك»(١).

وفي إنجيل متى المتداول بأيدي المسيحيين في الإصحاح العاشر عدد (٢٥) وما بعده يقول: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض، بل سيفًا فإنني جئت لأفرق الإنسان ضد ابنه والابن ضد أبيه، والكنة ضد حماتها... وأعداء الإنسان أهل بيته، من أحب أبًا أو أمًّا أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابنًا أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني، من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها»(٢).

والقانون الدولي العصري قد اعترف بالظروف والأحوال التي تشرع فيها الحرب ووضع لها قواعدها ونظمها.

وما جاء به الإسلام في هذا الباب أفضل وأدق وأرحم وأبر بالسلام من كل هذا، فلماذا تتوجه إليه الشبهات؟! وليس غيره سبيلاً إلى السلام ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

---

(١) سفر التثنية. الإصحاح العشرون الآية: ١٠-١٧.

(٢) إنجيل متى: الإصحاح العاشر، العدد: (٣٤)، (٣٥)، (٣٩).

خطوات الإسلام وما وضع من ضمانات لإقرار السلام:

وفي وسعنا بعد هذه النظرات أن نقول: إن الإسلام كان أول وأكمل تشريع خطا في سبيل إقرار السلام العالمي أوسع الخطوات، ورسم لاستقراره أوفى الضمانات التي لو أخذت الأمم بها، وسلك الحكام والزعماء والساسة نهج سبيلها لأراحوا واستراحوا، ومن ذلك:

١- تقديس معنى الإخاء بين الناس، والقضاء على روح التعصب، وقد تقدم موقف الإسلام من ذلك في الفصل السابق.

٢- الإشادة بفضل السلام، وطبع النفوس بروح التسامح الكريم، وقد تقدم في أول هذا الفصل موقف الإسلام في ذلك، مع افتراض الوفاء، وتحريم الغدر ونقض العهود والمواثيق.

٣- حصر فكرة الحروب في أضيق الحدود، وتحريم العدوان بكل صوره، وإشاعة العدل والرحمة، واحترام النظام والقانون حتى في الحرب نفسها، وللإسلام في ذلك القدح المعلى[1]، ويقول القرآن الكريم تأكيدًا لهذا المعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

٤- التأمين المسلح، وقد سبق الإسلام كل الخطوات العصرية إليه في قول القرآن الكريم: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا التي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ولقد ذكر رسول الله ﷺ ما كان في الجاهلية من هذا المعنى -وهو حلف الفضول بكل خير- وقال عنه: «لقد شهدت في بيت عبد الله بن

---

(١) القدح بكسر القاف: السهم. وقيل: النبل. تجمع على قداح وأقداح وقدوح. والمعلى على وزن المحلى: القدح السابع في الميسر، وهو أفضلها. وقيل: أول أسماء السهام: الفذ، ثم التوأم، ثم الرقيب، ثم الحلس، ثم النافس، ثم المسبل، ثم المعلى. [لسان العرب، مادة (علا)]، والمعنى: أن للإسلام الحظ الأوفر في إقرار السلام.

جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم» ثم قال: «ولو سئلت به في الإسلام لأجبت»[١].

أين خطوات زعماء هذا العصر من هذه الخطوات:

وبعد...

فأين خطوات زعماء هذا العصر وساسته وعلمائه ومشرعيه وفلاسفته من هذه النظرات؟! وماذا صنعوا لإقرار السلام على الأرض؟! وقد شهدت الدنيا في ربع قرن حربين عالميتين طاحنتين أكلتا الأخضر واليابس، وقامت بعد الحرب الأولى «عصبة الأمم» لإقرار السلام فكتب لها أن تموت قبل أن تولد، ووأدها الذين شهدوا مولدها بالأهواء السياسية والأطماع الاستعمارية، فلم تستطع أن تعالج قضية واحدة من قضايا الخلاف بين الأمم التي اشتركت فيها ووقعت ميثاقها، ولم تلبث إلا ريثما تهيأت الأمم والشعوب للحرب من جديد، وقيل: إن سبب فشلها خلو ميثاقها من النص على العقوبة العسكرية للمخالفين.

وعقب الحرب العالمية الثانية قامت هيئة الأمم المتحدة، وأنشئ مجلس الأمن واستكمل النقص التشريعي في بناء عصبة الأمم الموءودة، ومضى على ذلك وقت طويل، ولا زال الخلاف يشتد أثره ويقوى مظهره، ولم تنجح الهيئة ولا المجلس إلى الآن في علاج قضية أو تسوية خلاف، وليس وراء ذلك إلا الحرب الثالثة، وليس معنى الحرب الثالثة شيئًا إلا فناء الأرض ومن عليها؛ فنحن في عصر القنبلة الذرية.

فهل تفيء الإنسانية الحيرى إلى الله وتتلقى دروس السلام قلبيًا ونظريًا وعمليًا عن الإسلام دين المرحمة والسلام؟ ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

* * *

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى»، (٦/ ٣٦٧)، وقد صححه الألباني في تخريجاته على «فقه السيرة» للغزالي، ص(٦٧).

١- النظام الاقتصادي[(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

كتبت تحت عنوان: «مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي» عدة كلمات سالفة بينت فيها أن نظام الحكم الإسلامي يقوم على قواعد ثلاث:

أ- مسئولية الحاكم.

ب- احترام إرادة الأمة.

ج- والمحافظة على وحدتها.

وإن من حسن الحظ أن هذه هي أيضًا دعائم النظام النيابي الحديث الذي اخترناه لأنفسنا، كما بينت أننا لم نطبق هذا النظام ولا ذاك تطبيقًا صحيحًا، وبذلك اضطربت كل الأمور تبعًا لذلك، فإن هذا الأمر أصل وكل ما عداه تابع له «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[(٢)].

والحكومة -ولا شك- قلب الإصلاح الاجتماعي كله، فإذا فسدت أوضاعها فسد الأمر كله، وإذا صلحت صلح الأمر كله... وقد أهبت بالقائمين أن يبادروا بالإصلاح، وأن يعودوا إلى الإسلام الحنيف جماع الخير؛ ليهتدوا بهديه ويسيروا على ضوئه، وبغير ذلك لا يمكن أن نظفر بالإصلاح الحقيقي المنشود.

وهنا أتناول «وضعنا الاقتصادي» بمثل هذا البيان، رجاء أن تجد هذه الكلمات المخلصة آذانًا مصغية، وقلوبًا واعية، تستشعر الخطر وتعمل على تلافيه، من قبل أن يستشري الداء، ويعز الدواء، ويتسع الخرق على الراقع[(٣)]. ولا يحرك النفوس ويثير

---

(١) الإمام حسن البنا: رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، المطبعة العالمية، د.ت، ص(٧٣-١٠٠)، وقد أشير في الهامش أنها نشرت في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٧م.

(٢) أخرجه البخاري في «الإِيمَان»، باب: «فَضْلِ مَنْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ»، ح(٥٠)، ومسلم في «الْمُسَاقَاةِ»، باب: «أَخْذِ الْحَلال وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ»، ح(٢٩٩٦).

(٣) اتسع الخرق على الراقع: يضرب في الأمر الذي لا يستطاع تداركه لتفاقمه. [الزمخشري: المستقصى في أمثال العرب، (١/ ٩)].

الخواطر ويؤلم المشاعر شيء كالضائقة المالية، تأخذ بخناق الجماهير، فتحول بينهم وبين الحصول على ضروريات الحياة فضلاً عن كمالياتها. ولا أزمة أعنف من أزمة الرغيف، ولا عضة أقوى من عضة الجوع والمسغبة. ولا حاجة أشد من حاجة القوت، وطالب القوت ما تعدى[1]. دخلت الجارية على محمد بن الحسن الشيباني[2] صاحب أبي حنيفة، فقالت: يا سيدي، فني الدقيق. فقال: قاتلك الله! أذهبت من رأسي أربعين مسألة.

[واقعنا الاقتصادي:]

وهناك حقائق لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يتجاهلها منها:

أ - غنى طبيعي:

إن هذا البلد ليس فقيرًا بطبيعته، بل لعله أغنى بلاد الله -تبارك وتعالى- بخيراته الطبيعية وثرواته المختلفة، من زراعية ومائية وحيوانية ومعدنية، ونيله العجيب، وواديه الخصيب، وما شئت من فضل الله -تبارك وتعالى- على مصر وأهل مصر منذ القدم: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١].

ب - استغلال أجنبي

ومنها: أن الأجانب الذين احتلوا هذا الوطن بغفلة من أهله، وتساهل من

---

(١) ذكر الأبشيهي في «المستطرف» عن برهان الدين القيراطي هذه الأبيات:

قالوا اترك الخمر واجتنبها ... لا تتعد الحرام حدا

قلت أراها للروح قوتًا ... وطالب القوت ما تعدى

ولعل الإمام البنا أخذ هذا المعنى من الشطر الثاني من البيت الثاني.

(٢) «الشيباني [١٣١-١٨٩هـ = ٧٤٨-٨٠٤م]: محمد بن الحسن بن فرقد، من موالي بني شيبان، أبو عبد الله: إمام بالفقه والأصول، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة. أصله من قرية حرستة، في غوطة دمشق، وولد بواسط. ونشأ بالكوفة، فسمع من أبي حنيفة، وغلب عليه مذهبه وعرف به، وانتقل إلى بغداد، فولاه الرشيد القضاء بالرقة ثم عزله، ولما خرج الرشيد إلى خراسان صحبه، فمات في الري. له كتب كثيرة في الفقه والأصول، منها «المبسوط»، و«الزيادات»، و«الجامع الكبير»، و«الجامع الصغير»، و«الآثار»، و«السير»، و«الموطأ»، و«الأمالي»، و«المخارج في الحيل»، و«الأصل»، و«الحجة على أهل المدينة». [الزركلي: الأعلام، (٦/ ٨٠)].

حكامه، وظلم من غاصبيه، أسعد حالا من أهله وبنيه، وأنهم قد وضعوا أيديهم على أفضل منابع الثروات فيه؛ شركات أو أفرادًا، فالصناعة والتجارة، والمنافع العامة، والمرافق الرئيسية، كلها بيد هؤلاء الأجانب حقيقة، أو الأجانب الذين اتخذوا من الجنسية المصرية شعارًا ولا زالوا يحنون بعد إلى أوطانهم ويؤثرونها بأكبر أرباحهم، وإن كثيرًا من هؤلاء الأجانب لا زال ينظر إلى المواطن المصري، والعامل المصري، والحاكم المصري، نظرة لا تقدير فيها ولا إنصاف.

ج - ثراء فاحش وفقر مدقع

ومنها: أن التفاوت عظيم، والبون شاسع، والفرق كبير بين الطبقات المختلفة في هذا الشعب، فثراء فاحش وفقر مدقع، والطبقة المتوسطة تكاد تكون معدومة، والذي نسميه نحن الطبقة المتوسطة ليس إلا من الفقراء المعوزين، وإن كنا نسميهم متوسطين على قاعدة «بعض الشر أهون من بعض»[1]. ورحم الله فقهاءنا الذين حبَّروا البحوث الطويلة في الفرق بين الفقراء والمساكين، وإن كان كلاهما من المحتاجين البائسين.

د - تخبط اقتصادي

ومنها -وهو الأهم: أننا في وسط هذا المعترك الحاد الصاخب العنيف بين المبادئ الاقتصادية من رأسمالية أو اشتراكية أو شيوعية، لم نحدد لونًا نصبغ به حياتنا الاقتصادية، في وقت تحتم فيه التحديد، وتعقدت فيه الأمور، بحيث لم تعد تنفع فيها أنصاف الحلول، ولم يعد يجدي إلا الوضوح الكامل، وتحديد الأهداف تحديدًا دقيقًا، والسير إليها في قوة وعزيمة.

وهذه الأوضاع -وإن امتزجت بها المعاني السياسية- إلا أنها في أغلب صورها ودوافعها ونتائجها تعاليم وأوضاع اقتصادية. ولهذا كان لا بد لنا من أن نختار لونًا من هذه الألوان -أو من غيرها إن استطعنا- لنعيش في حدود وضع معلوم له خصائصه ومميزاته، يحدد أهدافنا الرئيسية، ويرسم لنا طريق العمل للوصول إلى هذه الأهداف.

---

(١) مقتبس من قول أبي خراش الهذلي من الطويل:

حَمِدتُ إلهي بَعدَ عُروَةَ إذ نَجا ... خِراشٌ وَبَعضُ الشَّرِّ أهوَنُ مِن بَعضِ

إلى الإسلام:

وأعتقد أنه لا خير لنا في واحد من هذه النظم جميعًا، فلكل منها عيوبه الفاحشة، كما له حسناته البادية، وهي نظم نبتت في غير أرضنا لأوضاع غير أوضاعنا، ومجتمعات فيها غير ما في مجتمعنا... فضلاً عن أن بين أيدينا النظام الكامل الذي يؤدي إلى الإصلاح الشامل في توجيهات الإسلام الحنيف، وما وضع للاقتصاد القومي من قواعد كلية أساسية، لو علمناها وطبقناها تطبيقًا سليمًا، لانحلت مشكلاتنا، ولظفرنا بكل ما في هذه النظم من حسنات، وتجنبنا كل ما فيها من سيئات، وعرفنا كيف يرتفع مستوى المعيشة وتستريح كل الطبقات، ووجدنا أقرب الطرق إلى الحياة الطيبة.

* * *

٢- النظام الاقتصادي[1]

قدمت في الكلمة السابقة أن مصر تتقاذفها الألوان الاقتصادية وتتضارب فيها النظم والآراء العصرية، من رأسمالية واشتراكية وشيوعية، وأن من الخير كل الخير أن تبرأ من هذه الألوان كلها، وأن تركز حياتها الاقتصادية على قواعد الإسلام وتوجيهاته العليا، وتستمد منه وتعتمد عليه، وذلك تسلم من كل ما يصحب هذه الآراء من أخطاء وما يلصق بها من عيوب، وتنحل مشاكلنا الاقتصادية من أقصر طريق.

قواعد النظام الاقتصادي في الإسلام:

ويتلخص نظام الإسلام الاقتصادي في قواعد أهمها:

١- اعتبار المال الصالح قوام الحياة، ووجوب الحرص عليه، وحسن تدبيره وتثميره.

٢- إيجاب العمل والكسب على كل قادر.

٣- الكشف عن منابع الثروات الطبيعية، ووجوب الاستفادة من كل ما في الوجود من قوى ومواد.

٤- تحريم موارد الكسب الخبيث.

٥- تقريب الشقة بين مختلف الطبقات، تقريبًا يقضي على الثراء الفاحش والفقر المدقع.

٦- الضمان الاجتماعي لكل مواطن، وتأمين حياته، والعمل على راحته وإسعاده.

٧- الحث على الإنفاق في وجوه الخير، وافتراض التكافل بين المواطنين، ووجوب التعاون على البر والتقوى.

٨- تقرير حرمة المال، واحترام الملكية الخاصة ما لم تتعارض مع المصلحة العامة.

٩- تنظيم المعاملات المالية بتشريع عادل رحيم، والتدقيق في شئون النقد.

١٠- تقرير مسئولية الدولة في حماية هذا النظام.

---

(١) نشرت بتاريخ ٢٩ ديسمبر ١٩٤٧م.

والذي ينظر في تعاليم الإسلام، يجد فيه هذه القواعد مبينة في القرآن الكريم والسنة المطهرة وكتب الفقه الإسلامي بأوسع بيان.

المال الصالح قوام الحياة:

فقد امتدح الإسلام المال الصالح، وأوجب الحرص عليه وحسن تدبيره وتثميره، وأشاد بمنزلة الغني الشاكر الذي يستخدم ماله في نفع الناس ومرضاة الله، وليس في الإسلام هذا المعنى الذي يدفع الناس إلى الفقر والفاقة من فهم الزهد على غير معناه.

وما ورد في ذم الدنيا والمال والغنى والثروة إنما يراد به ما يدعو إلى الطغيان والفتنة والإسراف، ويستعان به على الإثم والمعصية والفجور وكفران نعمة الله، وفي الحديث «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[١]، وفي الآية الكريمة: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥].

وفي ذلك الإشارة إلى أن الأموال قوام الأعمال، وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال في غير وجهه، فقال: «إن الله ينهاكم[٢] عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[٣]، كما أن من مات مدافعا عن ماله فهو شهيد كما جاء في الحديث: «من مات دون عرضه فهو شهيد، ومن مات دون ماله فهو شهيد...»[٤] الحديث.

العمل على كل قادر:

وفي الإسلام الحث على العمل والكسب، واعتبار الكسب واجبًا على كل قادر عليه، والثناء كل الثناء على العمال المحترفين، وتحريم السؤال، وإعلان أن من أفضل العبادة العمل، وأن العمل من سنة الأنبياء، وأن أفضل الكسب ما كان من عمل اليد، والزراية على أهل البطالة، والذين هم عالة على المجتمع مهما كان سبب تبطلهم -ولو

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في الروايات: «إن الله كره لكم».

(٣) أخرجه البخاري في «الزَّكَاةِ»، باب: «قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾...»، ح(١٣٨٣) ومواضع أخر، ومسلم في «الأَقْضِيَةِ»، باب: «النَّهْيِ عَنْ كَثْرَةِ الْمَسَائِلِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ...»، ح(٣٢٣٦) ومواضع أخر.

(٤) سبق تخريجه.

كان الانقطاع لعبادة الله- فإن الإسلام لا يعرف هذا الضرب من التبطل.

والتوكل على الله إنما هو بالأخذ في الأسباب وأيضًا بالنتائج، فمن فقد أحدهما فليس بمتوكل.. والرزق المقدور مقرون بالسعي الدائب، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ويقول رسول الله ﷺ: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود ﵇ كان يأكل من عمل يده»[(١)]، ويقول عمر: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة»[(٢)]، وفي الحديث: «لا يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم»[(٣)].

الكشف عن منابع الثروات:

كما أن فيه لفت النظر إلى ما في الوجود من منابع الثروة ومصادر الخير، والحث على العناية بها ووجوب استغلالها، وأن كل ما في هذا الكون العجيب مسخر للإنسان ليستفيد منه وينتفع به: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، ومن قرأ آيات القرآن الكريم علم تفصيل ذلك بأوسع بيان وأوفاه.

تحريم الكسب الخبيث:

ومن تعاليمه: تحريم موارد الكسب الخبيثة، وتحديد الخبث في الكسب بأنه ما كان بغير مقابل من عمل: كالربا والقمار واليانصيب ونحوها. أو كان بغير حق: كالنصب والسرقة والغش ونحوها. أو كان عوضًا لما يضر: كثمن الخمر والخنزير والمخدر ونحوها.

---

(١) أخرجه البخاري في «الْبُيُوعِ...»، باب: «كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ»، ح(١٩٣٠).

(٢) انظر: أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، (١/ ٤١٠)- ابن عبد ربه: العقد الفريد، (١/ ٢٦٠).

(٣) أخرجه البخاري في «الزَّكَاةِ»، باب: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُّرًا»، ح(١٣٨١)، ومسلم في «الزَّكَاةِ»، باب: «كَرَاهَةِ الْمَسْأَلَةِ لِلنَّاسِ»، ح(١٧٢٤، ١٧٢٥). المُزْعةُ بالضم قِطْعةُ لحم، وفي الحديث بمعنى قِطْعةٌ يسيرة من اللحم. [لسان العرب، مادة (مزع)].

فكل هذه موارد للكسب لا يبيحها الإسلام ولا يعترف بها.

التقريب بين الطبقات:

وقد عمل الإسلام على التقريب بين الطبقات بتحريم الكنز ومظاهر الترف على الأغنياء، والحث على رفع مستوى المعيشة بين الفقراء، وتقرير حقهم في مال الدولة ومال الأغنياء، ووصف الطريق العملي لذلك.

وأكثر من الحث على الإنفاق في وجوه الخير والترغيب في ذلك، وذم البخل والرياء والمنّ والأذى، وتقرير طريق التعاون والقرض الحسن ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى ورجاء ما عنده: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

حرمة المال واحترام الملكيات:

وقرر حرمة المال، واحترام الملكية الخاصة ما دامت لا تتعارض مع المصلحة العامة: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله»(١)، و«لا ضرر ولا ضرار»(٢).

تنظيم المعاملات المالية:

وشرع تنظيم المعاملات المالية في حدود مصلحة الأفراد والمجتمع، واحترام العقود والالتزامات، والدقة في شئون النقد والتعامل به، حتى أفردت له أبواب في الفقه الإسلامي تحرم التلاعب فيه كالصرف(٣) ونحوه، ولعل هنا موضعًا من مواضع الحكمة في تحريم استخدام الذهب والفضة باعتبارهما الرصيد العالمي للنقد(٤).

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب «البر والصلة والآداب»، باب: «تَحْرِيمِ ظُلْمِ الْمُسْلِمِ وَخَذْلِهِ وَاحْتِقَارِهِ وَدَمِهِ وَعِرْضِهِ وَمَالِهِ»، ح(٤٦٥٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه في «الأَحْكَام»، باب: «مَنْ بَنَى فِي حَقِّهِ مَا يَضُرُّ بِجَارِهِ»، ح(٢٣٣١، ٢٣٣٢). وأحمد في «بِدَايَة مُسْنَد عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، أَخْبَار عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ»، ح(٢٧١٩، ٢١٧١٤). وقد صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»، ح(٢٣٤٠).

(٣) الصرف: مبادلة تجري بين النقدين وتخضع لشروط خاصة تعرف في مراجعها من كتب الفقه.

(٤) يحرم الإسلام استخدام الذهب والفضة مطلقًا في الأواني والأدوات الخاصة، ويحرم الذهب كزينة للرجال، وكذا الإسراف فيه للنساء. ولعل ذلك لأن حاجة الدولة إلى رصيد ضخم من هذه المعادن أولى بالاعتبار من الاستعمال الفردي.

الضمان الاجتماعي:

وقرر الضمان الاجتماعي لكل مواطن، وتأمين راحته ومعيشته -كائنًا من كان- مادام مؤديًا لواجبه، أو عاجزًا عن هذا الأداء بسبب قهري لا يستطيع أن يتغلب عليه. ولقد مر عمر على يهودي يتكفف الناس، فزجره واستفسر عما حمله على السؤال، فلما تحقق من عجزه رجع على نفسه باللائمة وقال له: «ما أنصفناك يا هذا، أخذنا منك الجزية قويًا، وأهملناك ضعيفًا، افرضوا له من بيت المال ما يكفيه».

وهذا مع إشاعة روح الحب والتعاطف بين الناس جميعًا.

مسئولية الدولة:

وأعلن مسئولية الدولة عن حماية هذا النظام، وعن حسن التصرف في المال العام، تأخذه بحقه وتصرفه بحقه، وتعدل في جبايته، ولقد قال عمر ما معناه: «إن هذا المال مال الله، وأنتم عباده، وليصلن الراعي بأقصى الأرض قسمه من هذا المال، وإنه ليرعى في غنمه، ومن غَلّ غلّ في النار».

استغلال النفوذ.. من أين لك هذا؟

كما حظر الإسلام استخدام السلطة والنفوذ، ولعن الراشي والمرتشي والرائش، وحرم الهدية على الحكام والأمراء، وكان عمر يقاسم عمّاله ما يزيد عن ثرواتهم، ويقول لأحدهم: «من أين لك هذا؟ إنكم تجمعون النار وتورثون العار». وليس للوالي من مال الأمة إلا ما يكفيه، وقد قال أبو بكر لجماعة المسلمين حين ولي عليهم: «كنت أحترف لعيالي فأكتسب قوتهم، وأنا الآن أحترف لكم، فافرضوا لي من بيت مالكم»، ففرض له أبو عبيدة قوت رجل من المسلمين ليس بأعلاهم ولا بأوكسهم، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وراحلة يركبها ويحج عليها، وقُوِّمت هذه الفريضة بألفي درهم.. ولما قال أبو بكر: لا يكفيني، زادها له خمسمائة.. وقُضي الأمر.

تلك هي روح النظام الاقتصادي في الإسلام، وخلاصة قواعده أوجزناها منتهى الإيجاز، ولكل واحدة منها تفصيل يستغرق مجلدات ضخامًا، ولو اهتدينا بهديها وسرنا على ضوئها لوجدنا في ذلك الخير الكثير.

* * *

٢- النظام الاقتصادي[١]

استقلال النقد:

ذكرنا بعض الأصول التي يقوم عليها النظام الاقتصادي الإسلامي، والروح التي تمليها علينا تلك الأصول، التي تنتج مع التطبيق الصحيح وضعا اقتصاديا سليما ليس أفضل منه، فهي توجب استقلال نقدنا، واعتماده على رصيد ثابت من مواردنا ومن ذهبنا، لا على أذونات الخزانة البريطانية ودار الضرب البريطانية والبنك الأهلي البريطاني -وإن كان مقره مصر- وتأمل الآية الكريمة: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥].

ومن أفظع التغرير بهذا الشعب، أن يسلم جهوده ومنتجاته نظير أوراق لا قيمة لها إلا بالضمان الإنجليزي، وإن مصر إذا حزمت أمرها، وأحكمت تصرفاتها، ستصل ولا شك إلى هذا الاستقلال.

ولقد انفصلنا عن الكتلة الإسترلينية، وفكرنا في تأميم البنك الأهلي، وطالبنا بالديون الكثيرة لنا على الإنجليز، وكل هذه ونحوها مشروعات تؤمن النقد المصري... فماذا فعل الله بها؟ وماذا أعددنا العدة لإنفاذها؟

ولعل من المفارقات أن أكتب هذه الكلمات في الوقت الذي يذاع فيه أن المفاوضات بين مصر وإنجلترا حول الأرصدة الإسترلينية باءت أو قاربت أن تبوء بالفشل، لتعنت الإنجليز وتمسكهم بألا يدفعوا لمصر عن سنة ١٩٤٨م أكثر من ١٢مليونًا، في الوقت الذي تطلب فيه مصر طلبًا متواضعًا هو ١٨ مليونًا.

ولقد أنتج ضعف الرقابة على النقد، والاستهانة بأمره استهانة بلغت حد الاستهتار، هذه المآسي التي نصطلي بنارها من التضخم الذي استتبع غلاء المعيشة، وصعوبة الاستيراد والتصدير.

ولم يحدث في تاريخ الدول الراقية -فيما نعلم- أن بنكا يستغل قرارا من وزير هذا الاستغلال الشائن، كما فعل ذلك البنك الأهلي بقرار وزارة المالية غير الموقع عليه من

(١) نشرت بتاريخ ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٤٧م.

أحد في يونيو سنة ١٩١٦[١]، فيصدر بمقتضاه من الأوراق ما يشاء.

تمصير الشركات:

كما توجب هذه الأصول الاهتمام الكامل بتمصير الشركات، وإحلال رءوس الأموال الوطنية محل رءوس الأموال الأجنبية كلما أمكن ذلك، وتخليص المرافق العامة -وهي أهم شيء للأمة- من يد غير أبنائها، فلا يصح بحال أن تكون الأرض والبناء والنقل والماء والنور والمواصلات الداخلية والنقل الخارجي -حتى الملح والصودا- في يد شركات أجنبية تبلغ رءوس أموالها وأرباحها الملايين من الجنيهات، لا يصيب الجمهور الوطني ولا العامل الوطني منها إلا البؤس والشقاء والحرمان.

[استغلال منابع الثروة:]

واستغلال منابع الثروة الطبيعية استغلالاً سريعًا منتجًا، أمر يوجبه الإسلام، الذي لفت أنظارنا كتابه إلى آثار رحمة الله في الوجود، وما أودع في الكون من خيرات في الأرض وفي السماء، وأفاض في أحكام الركاز، وحث على طلب الخير أينما كان. في الماء عندنا ثروات، وفي الصحاري ثروات، وفي كل مكان ثروات، لا ينقصها إلا فكر يتجه، وعزيمة تدفع، ويد تعمل، وخذ بعد ذلك من الخير ما تشاء: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨]، والعلماء هنا -فيما أظن- الذين يعلمون علم الكائنات وما فيها للناس من خير، وما يتجلى في دقيق صنعها من واسع علم الله خالق الأرض والسموات.

والعناية بالمشروعات الوطنية الكبرى المهملة التي طال عليها الأمد، وقعد بها التراخي والكسل، أو أحبطتها الخصومة الحزبية أو طمرتها المنافع الشخصية، أو قضت

---

(١) تولت وزارة حسين رشدي باشا الثانية من ١٩ديسمبر ١٩١٤- ٩أكتوبر ١٩١٧، وشغل يوسف وهبة باشا فيها منصب وزير المالية، وصدر وقتذاك قرار عسكري بريطاني بأنه سيتم طرح العملة الورقية مع سحب التعامل بالذهب شيئًا فشيئًا؛ وقد كانت مصر لا تعرف الأوراق المالية وكان كل تعاملها قائمًا على العملة الذهبية. وكان من أسباب هذا القرار احتياج بريطانيا للذهب. وقد صدر قرار آخر عام ١٩١٧م بأن أي جنيه ذهب يدخل للقطاع المصرفي يتم حجزه، ثم يسلم لبنك إنجلترا مقابل جواب يقر بذلك يقدم من البنك الأهلي المصري، والذي كان يعد بنكًا إنجليزيًّا.

عليها الألاعيب السياسية والرشوة الحرام، كل هذه يجب أن تتوجه إليها الهمم من جديد: «إن الله يحب من أحدكم إذا عملَ عملاً أن يتقنه»[١].

كم كنا نربح لو أن مشروع خزان أسوان تحقق فعلا منذ سنة ١٩٣٧، وكم كنا نحتاج ونعرى لو لم يلهم الله طلعت حرب[٢] -عليه الرضوان- أن يتقدم بمشروعات (المحلة).

هناك مشروعات كثيرة درست وبحثت، ثم وضعت على الرف وطال عليها الأمد قبل الحرب، ولا موجب لهذا الإهمال، والضرورة قاسية والحاجة ملحة، والأمر لا يحتمل التأخير.

انفضوا الغبار عن ملفات هذه المشروعات واستذكروها من جديد ونفذوا: ﴿فَسَيَرَى[٣] اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

الصناعة:

والتحول إلى الصناعة فورًا من روح الإسلام الذي يقول نبيه ﷺ: «إن الله يحب المؤمن المحترف»[٤]، «من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورًا له»[٥]. والذي أثنى كتابه على داود وسليمان بهذا التقدم الصناعي، وذكر لنا من دقائق الرقي فيه ما أعجز البشر، واستغل قوى الجن والشياطين.

حرام على الأمة التي تقرأ في كتابها من الثناء على داود عليه السلام: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۞ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٦] [سبأ: ١٠-١١]، وتقرأ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠]،

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط»، (٢/٤٠٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان»، (١١/٢٩٨). وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، (٣/١٠٦).

(٢) محمد طلعت بن حسن محمد حرب [٢٥نوفمبر ١٨٦٧- ٢٣أغسطس ١٩٤١م]: مؤسس بنك مصر، قام على يده أول اقتصاد مصري، فقام بتأسيس بنك مصر وشركة مصر للغزل والنسيج، توفي في أغسطس ١٩٤١م.

(٣) في الأصل: «وسيرى».

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) في الأصل: «عليم».

ثم لا يكون فيها مصنع للسلاح.

ثم تقرأ في كتابها: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۞ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٢-١٣]، ثم لا يكون فيها مسبك عظيم، ولا مصنع كامل للأدوات المعدنية.

ثم تقرأ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، ثم تهمل ما عندها من هذا المعدن هذا الإهمال، وهو من أجود الأنواع ويكفي العالم مائتي عام كما قدر الخبراء... حرام هذا كله!!!

* * *

٤- النظام الاقتصادي[١]

عرضت في الكلمة السابقة لبعض صور التطبيق التي تمليها علينا قواعد النظام الإسلامي الاقتصادي، وأعرض في هذه الكلمة لبعض الصور التي تمليها هذه القواعد أيضًا في صميم الإصلاح الاقتصادي القومي.

نظام الملكيات في مصر:

توجب علينا روح الإسلام الحنيف، وقواعده الأساسية في الاقتصاد القومي، أن نعيد النظر في نظام الملكيات في مصر، فنختصر الملكيات الكبيرة، ونعوض أصحابها عن حقهم بما هو أجدى عليهم وعلى المجتمع، ونشجع الملكيات الصغيرة، حتى يشعر الفقراء المعدمون بأن قد أصبح لهم في هذا الوطن ما يعنيهم أمره، ويهمهم شأنه.. وأن نوزع أملاك الحكومة حالاً على هؤلاء الصغار كذلك حتى يكبروا.

تنظيم الضرائب:

وتوجب علينا روح الإسلام في تشريعه الاقتصادي، أن نبادر بتنظيم الضرائب الاجتماعية، وأولها «ضريبة الزكاة»، وليس في الدنيا تشريع فرض الضريبة على رأس المال لا على الربح وحده كالإسلام، وذلك لحكم جليلة منها: محاربة الكنز وحبس الأموال عن التداول، وما جعلت الأموال إلا وسيلة لهذا التداول الذي يستفيد من ورائه كل الذين يقع في أيديهم هذا المال المتداول..

وإنما جعل الإسلام مصارف الزكاة اجتماعية بحتة لتكون سببًا في جبر النقص والقصور الذي لا تستطيع المشاعر الإنسانية والعواطف الطيبة أن تجبره، فيطهر بذلك المجتمع ويزكو، وتصفو النفوس وتسمو: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

فلا بد من العناية بفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدي -بحسب المال لا بحسب الربح- يعفى منها الفقراء طبعًا، وتجبى من الأغنياء الموسرين، وتنفق في رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة.. ومن لطائف عُمر ﷺ أنه كان يفرض الضرائب

---

(١) نشرت بتاريخ ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٧م.

الثقيلة على العنب لأنه فاكهة الأغنياء، والضريبة التي لا تذكر على التمر لأنه طعام الفقراء، فكان أول من لاحظ هذا المعنى الاجتماعي في الحكام والأمراء ﷺ.

محاربة الربا:

ويوجب علينا روح الإسلام أن نحارب الربا حالاً، ونحرمه ونقضي على كل تعامل على أساسه: «ألا وإن الربا موضوع، وأول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب»[١] وصدق رسول الله.

ولقد كان المصلحون يتجنبون أن يقولوا في الماضي هذا الكلام حتى لا يقال لهم: إن ذلك مستحيل، وعليه دولاب الاقتصاد العالمي كله، أما اليوم.. فقد أصبحت هذه الحجة واهية ساقطة لا قيمة لها بعد أن حرّمت روسيا الربا وجعلته أفظع المنكرات في دارها، وحرام أن تسبقنا روسيا الشيوعية إلى هذه المنقبة الإسلامية، فالربا حرام... حرام... حرام وأولى الناس بتحريمه أمم الإسلام ودول الإسلام.

تشجيع الصناعات المنزلية:

وتوجب علينا روح الإسلام تشجيع الصناعات اليدوية المنزلية، وهذا هو باب الإسعاف السريع لهذه العائلات المنكوبة، وباب التحول إلى الروح الصناعي والوضع الصناعي.. وأول ما تفعله هذه الأيدي العاطلة، الغزل والنسيج بالأنوال الصغيرة، وصناعة الصابون، وصناعة العطور والمربيات[٢]، وأنواع كثيرة وصنوف كبيرة تستطيع النساء والبنات والأولاد أن يشغلوا الوقت فيها، فتعود بالربح الوفير، وتمنعهم بؤس الحاجة وذل السؤال.

وقد رأينا هذا بأعيننا منذ زمن في «فوة» غربية، و«بني عدي» منفلوط، وغيرها من بلدان القطر المصري، ورأينا في هذه البلاد الثروة والغنى ويسر الحال. ولقد كانت وزارة الشئون قد فكرت في هذا المشروع الحيوي، واستحضرت أصنافا من المغازل، ولا ندري

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في «الْحَجِّ»، باب: «حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ»، ح(٢١٣٧)، من طريق جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ».

(٢) مفردها: المربَّى، [المعجم الوجيز، ص(٢٥٣)].

ماذا فعل الله بها.. ويوم الحكومة بسنة كما يقولون، ولكن الأمر لم يعد يحتمل الانتظار.

تقليل الكماليات والاكتفاء بالضروريات:

وإرشاد الشعب إلى التقليل من الكماليات والاكتفاء بالضروريات، وأن يكون الكبار في ذلك قدوة للصغار، فتبطل هذه الحفلات الماجنة، ويحرم هذا الترف والإسراف الفاسد، ويظهر الجد بخشونته وعبوسته ووقاره وهيبته على الدور والقصور والوجوه والمنتديات.. أمر يحتمه الإسلام الحنيف، وتحتمه الظروف القاسية الحاضرة والمنتظرة والمرتقبة، وكل ذلك يحتاج إلى إعداد.

هذه كلها واجبات لابد أن ننهض بأعبائها حالاً.. فإلى العمل.

وبعد...

فهنا نحن قد رأينا مما تقدم كيف أننا لم نسر على نظام اقتصادي معروف لا نظريًا ولا عمليًا، وأن هذا الغموض والارتجال قد أدَّيا[1] بنا إلى ضائقة أخذت بمخانق الناس جميعًا.

وليس الشأن أن نرتجل الحلول، ونواجه الظروف بالمخدرات والمسكنات التي يكون لها من رد الفعل ما ينذر بأخطر العواقب، ولكن المهم في أن ننظر إلى الأمور نظرة شاملة محيطة، وأن نردها إلى أصل ثابت تستند إليه، وترتكز عليه. وليس ذلك إلا «النظام الإسلامي» الشامل الدقيق، وفيه خير السداد.

لقد أتاح الله لنا من أسباب اليسر الاقتصادي والنجاح المادي ما لم يتحه لغيرنا من الأمم والشعوب، فهذه الرابطة الوثيقة من اللغة والعقيدة والمصلحة والتاريخ بيننا وبين أمم العروبة والإسلام، وهي بحمد الله أغنى بلاد الله في أرضه: أخصبها تربة، وأعدلها جوًّا، وأكثرها خيرات، وأثراها بالمواد الأولية وبالخامات من كل شيء..

هذه الرابطة تمهد لنا -لو أحسنا الانتفاع بها- سبيل الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي، وتنقذنا من هذا التحكم الغربي في التصدير والاستيراد وما إليهما.

ولا يكلفنا الأمر أكثر من أن نعزم ونتقدم، ونقوي الصلة، ونحكم الرابطة، ونوالي البعثات والدراسات، ونحاول بكل سبيل إنشاء أسطول تجاري، ونشيع روح الوحدة

---

(١) في الأصل: «أدى».

والتعاون بيننا وبين أمم العروبة وشعوب الإسلام.

لقد صبر الشعب المصري صبرًا طويلاً على هذه الحياة الجافة القاسية، وهذا الحرمان العجيب الذي لا يصبر عليه آدمي إلا بمعجزة من معجزات الإيمان، ومن نظر إلى العامل المصري والفلاح المصري ومن إليهما من عامة الشعب المصري، أخذه العجب مما يشاهد من فاقة وصبر.

لقد أخجلني أحد الإخوان الهنود -وقد قدم من إنجلترا حديثًا- حين عاد من جولة قصيرة في القاهرة، يقول لي: لقد كنا نظن أن ما تنشره الصحف في إنجلترا من سوء حالة الشعب المصري، وانخفاض مستوى معيشته، مجرد دعاية يراد بها الحطّ من كرامته، ولكني قضيت هذه الفترة القصيرة في القاهرة وزرت بعض أحياء عامتها فأسفت لما رأيت، فخجلت لقوله هذا، ولكنني رددت عن نفسي وعن الشعب بقولي له: سل هذه الجرائد التي تنشر، أليس هذا البؤس من مظالم الاحتلال؟

وتألمت مرة ثانية حين وجه إليّ مدير شركة أجنبي قوله: أأنت راضٍ عن حال هؤلاء العمال المساكين؟! ولكنني رددت عليه أيضًا: أولست تعلم أن السبب في هذه المسكنة استئثار هذه الشركات وبخلها على هؤلاء العمال بما يوازي ضروريات الحياة؟!

إن الأمر جدّ لا هزل فيه، وقد بلغ غايته، ووصل إلى مداه، ولا بد من علاج حاسم وسريع، ولن نجده كما قلت إلا في طب الإسلام الحنيف وعلاجه.

فيا دولة رئيس الحكومة، ويا رؤساء الهيئات والجماعات، ويا من يعنيهم أمر الطمأنينة والسلام في هذا الوطن:

تداركوا الأمر بحزم... وعودوا إلى نظام الإسلام.

ألا قد بلغت.. اللهم فاشهد.

* * *